

إحراق طارق بن زياد للسفن أسطورة ... لا تاريخ !!

الدكتور / عبد الحليم عويس



احراق طارق بن زياد للسفن
اسطوره لا تاريخ!!

كافة حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة



الإدارة : ١٦ ش عدلى ص.ب ١٣٤٧ رمز بريدى ١١٥١١
ت ٣٩٣١٤٣٤ فاكس ٣٩١٢٢٠٩٠
الفرع : حدائق حلوان بحوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١

إحراق طارق بن زياد للسفن أسطورة ... لا تاريخ !!

الدكتور / عبد الحليم عويس

الفهرس

الموضوع	الصفحة
- قضية إحراق طارق للسفن فى المصادر التاريخية .	٥
- فتح طارق للأندلس فى أقدم المصادر الأندلسية	٩
- ظهور رواية إحراق السفن	١٣
- إحراق السفن والأسطورة	١٦
- خطبة طارق . . . ما مدى دلالتها على حرق السفن	٢٤
- قضية إحراق طارق للسفن فى نظر المؤرخين المحدثين	٣٤
- النافون والمتجاهلون للقصة من المؤرخين المحدثين	٣٤
- الرافضون للقصة من المؤرخين المحدثين	٣٧
- إحراق السفن فى الإطار الشرعى	٤٦
- رأينا فى القضية	٥٠
- أولا : نقد السند	٥٠
- ثانيا : النقد التاريخى لمضمون قصة إحراق السفن	٥٥
- مراجع البحث	٧٣
- الفهرس	٧٧

قضية إحراق طارق للسفن

فى المصادر التاريخية

لم تحظ قضية من قضايا التاريخ الإسلامى الأندلسى باهتمام المؤرخين واختلافهم ، وجنوح بعضهم - فى ثقة واطمئنان - إلى رأى المثبت ، وجنوح آخرين - فى ثقة عمالة - إلى رأى المنفى ، مثلما حظيت قضية إحراق طارق بن زياد للسفن ، التى عبر عليها جنوده إبان فتحه أسبانيا (رجب - رمضان ٩٢ هـ / يونيو - يولة ٧١١ م) .

فبعض المؤرخين الذين يتمون إلى أزمنة مختلفة وأماكن مختلفة يتجاهلون قصة إحراق طارق للسفن ، ويتحدثون عن الفتح دون أدنى إشارة إليها - على ما سنفصله فيما بعد - وكأنها شىء لا أصل له ، وبعضهم فى المقابل يتناولون قصة (إحراق طارق للسفن) وكأنها حقيقة ثابتة لا تحتاج إلى الوقوف عندها ولا إلى ذكر أدلة على وقوعها ، وبالتالي فهم يعرضونها بطريقة تقريرية ، ويعتبرونها مفخرة من مفاخر الفتوحات الإسلامية ، وعملا بطوليا شجاعا يدل على روح الفداء والاستشهاد التى عرف بها المسلمون والعرب فى عصر الفتوحات الإسلامية الأولى !

ولقد ذاع الرأى (المثبت) لقصة إحراق السفن ، وشق طريقه فى الفكر التاريخى ، وكأنه حقيقة مسلم بها ، مع أنه لم يظهر إلا بعد مرور أربعة قرون ونصف القرن من تاريخ الفتح الإسلامى

لأسبانيا ، إذ لم يشر إلى قصة إحراق السفن هذه أحد من المؤرخين القدماء ، سواء من المدرسة التاريخية المصرية التى أرخت للأندلس خلال القرن الثالث الهجرى وهى مدرسة ابن عبد الحكم المؤرخ المصرى ، صاحب كتاب « فتوح مصر والمغرب والأندلس »^(١) - وعبد الملك بن حبيب ، الذى عاش فى مصر ، وإن كان أندلسى الأصل ، وصاحب كتاب « مبتدأ خلق الدنيا » المعروف بناريخ عبد الملك بن حبيب^(٢) - أم من المدرسة التاريخية الأندلسية التى ظهرت فى القرن الرابع ، وهى مدرسة أبى بكر محمد القرطبى المعروف بابن القوطية (ت ٣٦٧ هـ) ، وصاحب كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » - وسوف نورد ما ذكره فى قصة الفتح بشىء من التفصيل - ومعاصره (المجهول) فى القرن الرابع صاحب كتاب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها »^(٣) - وسوف نورد ما ذكره كذلك لكونه مرجعا أساسيا فى تلك الفترة - ولم ترد عند آل الراى - أحمد بن محمد وعيسى ابنه - وابن الفرضى (ت ٤٠٣ هـ) صاحب « تاريخ علماء الأندلس » والخشنى صاحب كتاب « قضاة قرطبة » .

فكل مؤرخى القرن الرابع هؤلاء لم يظهر أثر للقصص فى كتاباتهم!!

وحتى مع ظهور المدرسة التاريخية المغربية والأندلسية المناقلة فى

(١) نشره المستشرق تشارلز توري ، وأخيرا حققه فى مصر الأستاذ عبد المنعم عامر .

(٢) توفى ابن حبيب سنة ٢٣٨ هـ .

(٣) نشره عدد من المستشرقين ، ثم حققه إبراهيم الإبيارى .

القرن الخامس الهجرى ، تلك التى قدمت لنا عدداً كبيراً من أعلام المؤرخين الأندلسيين من أمثال شيخ مؤرخى الأندلس أبى مروان بن حيان القرطبى صاحب « المقتبس »^(١) و « المتين »^(٢) ، وابن حزم الأندلسى صاحب « نقط العروس » و « طوف الحمامة » و « جمهره أنساب العرب » و « كتاب الفصل » وعدد كبير من الرسائل ، وكلها مطبوعة موجودة ، والحميدى صاحب « جذوة المقتبس » ، وصاعد صاحب « طبقات الأمم » ، والطرطوشى صاحب « سراج الملوك » ، والربقى القيروانى صاحب « تاريخ إفريقية والمغرب » ، وغيرهم .

حتى مع ظهور هذه المدرسة المغربية والأندلسية المتميزة والمستوعبة ، فإنه لم يظهر فى تراثها أثر لقصة إحراق السفن التى نسبت إلى طارق بن زياد فى فتحه للأندلس .

ومن الجدير بالذكر أن مصادر القرن السادس للهجرة - المعاصرة للإدريسى وابن الكردبوس القائلين بقصة الإحراق - لم تورد هذه القصة أيضاً ، فلم تظهر القصة عند ابن بسام الشنترينى صاحب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، ولا عند ابن بشكوال صاحب « الفهرست » .

كما أن القصة لم تظهر عند لاحقهم من مؤرخى القرن السابع ، فليس لها أثر فى موسوعة ابن عذارى المراكشى « البيان المغرب فى

(١) حقق قطعا منه الدكتور محمود على مكى والدكتور عبد الرحمن الحجى .

(٢) توجد بصوص كثيرة منه فى الدخيرة ، وقد جمعها الدكتور عبد الله جمال الدين فى أطروحته للدكتوراة بمدريد

أخبار الأندلس والمغرب » ، و « المعجب في تلخيص أخبار المغرب »
لعبد الواحد المراكشي ، و « الذيل والتكملة » لمحمد بن عبد الملك
المراكشي ، و « التكملة والحلة السيرة » لابن الأبار ، ومحمد بن
على الشباط المصري التوري صاحب « صلة السمط وسمه المرط » .

وهي لم تظهر كذلك عند مؤرخي القرن الثامن الهجري وعلى
رأسهم علامة المغرب عبد الرحمن بن خلدون ، ولسان الدين بن
الخطيب (١) .

فهل يمكن أن يتجاهل جميع هؤلاء المؤرخين المغاربة الأندلسيين
- خلال هذه القرون - قصة هذا شأنها في تاريخهم ؟؟

(١) لم نذكر - خشية الإطالة - النصوص التي أوردها هؤلاء في تراثهم عن فتح الأندلس ،
فضلا عن أن هذا لا يقتضيه المنهج العلمي ، علما بأننا رجعنا إلى كل هذه المصادر
نلتبس فيها ما يدل على قصة الإحراق أو يقترب من الدلالة عليها فلم نجد لذلك أثرا
انظر على سبيل المثال ما كتبه هؤلاء عن فتح الأندلس في : جذوة المقتبس
للحميدى ص ٣٢ ، ٣٣ نشر دار الكتب الإسلامية والكتبات المصرية واللبثاني الطبعة
١٩٨٣ / ٢ ، وتاريخ إفريقية والمغرب : للرفيق الفيرواني تحقيق المنجي الكعبي نشر رफी
السقطى تونس ١٩٦٨ صفحات ٧٤ وما بعدها ، وانظر صلة السمط : لابن الشباط .
ص ١٣٧ وما بعدها بتحقيق أحمد مختار العبادى مديرد ١٩٧١ ، وفتح المسلمين
للأندلس لمؤلف مجهول بتحقيق حسين مؤنس مجلة معهد الدراسات الإسلامية ١٩٧٤ ،
والعبر : لابن خلدون - ١١٧ / ٤ وما بعدها ، الطبعة الرابعة المصورة ، دار الكتب
العلمية ١٩٧٩ . وحتى المصادر المشرقية رجعا إليها فلم نجد أثرا . وتاريخ الرسل
والملوك للطبري ٨ / ٨٢ وما بعدها طبعة مصورة من مطبعة الحسين بمصر نشر دار الفكر
بيروت ، والكامل : لابن الأثير ٥٦٢ / ٤ وما بعدها ، طبع دار صادر بيروت
١٩٦٥ ، وأخبار الزمان للمسعودي . ص ٩٦ ، نشر مكتبة الأندلس ، بيروت

فتح طارق للأندلس فى أقدم المصادر الأندلسية :

ذكرنا أننا سنقف وقفة متأنية عند مصدرين أساسيين فى تاريخ افتتاح الأندلس ، وهما تاريخ ابن القوطية ، وتاريخ أخبار مجموعة ، فهما من أهم المصادر وأوثقها وأحراها بإيراد القصة لو كان لها أصل فى التاريخ .

ولقد تتبعنا الكتاب الأول منهما ، فلم نجد أى أثر لقصة حرق السفن فى كتاب ابن القوطية ، مع أن كتابه « تاريخ افتتاح الأندلس » من أقدم المصادر وأهمها فى تاريخ الفتح الأندلسى . وما ذكره ابن القوطية حول (الفتح الإسلامى للأندلس) يتلخص فى النصوص التالية :

قال ابن القوطية :

فلما دخل طارق بن زياد الأندلس ، أبام الوليد بن عبد الملك ، كتب لذرير إلى أولاد الملك غيطشة ، وقد ترعرعوا وركبوا الخيل ، بدعواهم إلى مناصرتهم وأن تكون أيديهم واحدة على عدوهم ، وحشدوا الشجر ، وقدموا ونزلوا شقنذة وما يطمثنون إلى لذرير بدخول قرطبة ، فخرج إليهم ثم نهض للقاء طارق ، فلما تقابلت الفشتان أجمع « المنند » وأخواه على الغدر بلذرير ، وأرسلوا فى ليستهم نلك إلى طارق يعلمونه أن لذرير إنما كان كلباً من كلاب أبيهم وأتباعه ويسألونه الأمان على أن يخرجوا إليه بالصباح ، وأن يمضى لهم ضياع أبيهم بالأندلس وكانت ثلاثة آلاف ضيعة سميت بذلك صفايا الملوك ، فلما أصبحوا انحازوا بمن معهم إلى طارق

فكانوا سبب الفتح^(١) . وكان دخول طارق الأندلس فى رمضان سنة اثنتين وتسعين^(٢) .

فلما جاور طارق وصار بعدوة الأندلس كان أول ما افتتحه مدينة قرطاجنة بكورة الجزيرة فأمر أصحابه بتقطيع من قتلوه من الأسراء ، وطبخ لحومهم بالقدور وعهد بإطلاق من بقى من الأسراء ، وأخبر المنطلقون بذلك كل من لقوه فملأ الله قلوبهم رعباً^(٣) .

ثم تقدم فلقى لذريق (. . .) ثم تقدم إلى استجة وإلى قرطبة ، ثم إلى طليطلة ، ثم إلى الفج المعروف بفج طارق الذى منه دخل جليقية ، فخرج من جليقية حتى انتهى إلى استرقة^(٤) .

وهكذا لم يرد أى ذكر - ولا أدنى إشارة - حول قصة إحراف السفن لدى ابن القوطية الذى يعتبر مصدراً من المصادر الأساسية فى فتح الأندلس ، وإن كان هذا النصر يفيدنا شيئاً قريباً من قصة الإحراق فهو يدلنا على أسلوب طارق الحربى ، إذ أنه كان يؤمن بأسلوب التمويه وحرب الأعصاب .

أما صاحب « أخبار مجموعة » - الذى يعتبر أيضاً من أوثق المصادر فى تاريخ الفتح الإسلامى للأندلس ، والمنسوب إلى القرن

(١) ص ٢٩ ، ٣٠ بتحقيق إبراهيم الإبيارى، نشر دار الكتب الإسلامية، بيروت والقاهرة

(٢) المصدر السابق : ص ٣٣ .

(٣) السابق : ص ٣٥ وهو إبهام مقصود يمكن أن يكون حرق السفن من نوعه وهو ما سجله ونقف عنده فى ختام البحث .

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس : لابن القوطية . ٣٥ .

الرابع الهجرى - فهو من هؤلاء الذسن لم يوردوا أى ذكر لحادثة إحرار السفن هذه ، على الرغم من أن « أخبار مجموعة » من أقدم الكتب - بعد جيل ابن عبد الحكم وابن حبیب - فى التأريخ لفتح الأندلس . . . وقصة الفتح عند صاحب أخبار مجموعة (١) ترد على النحو التالى :

فبعث رجلا من موالیه - أى موسى بن نصير - يقال له : طریف ، ويكنى بأبى زرعة ، فى أربعمائة ، ومعهم مائة فرس ، فسار فى أربعة مراكب ، حتى نزل بمراكبه جزيرة ، يقال لها : جزيرة الأندلس ، التى هى معبر مراكبهم ودار صناعتهم ، ويقال لها : جزيرة طریف ، سميت به لنزوله فيها .

فلما رأى ذلك تسرعوا إلى الدخول ، فدعا موسى مولى له ، كان على مقدماته ، يقال له : طارق بن زياد ، فبعثه فى سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر والموالى ، ليس فيهم عرب إلا قليل ، فدخل فى تلك الأربع السفن ، لا صناعة لهم غيرها ، وذلك فى سنة اثنتين وتسعين .

فاختلف السفن بالرجال والخيول ، وضمهم إلى جبل على شط البحر منيع ، فنزله ، والمراكب تختلف حتى نوافى جميع أصحابه .

(١) أخبار مجموعة لمؤلف مجهول (أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم) تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتاب ، بيروت ، الطعة الأولى ١ ١٤ .

وكان موسى مذ وجه طارقا أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل إليه خمسة آلاف ، فتوافى المسلمون بالأندلس ، عند طارق اثنا عشر ألفا ، وقد أصابوا سببا كثيرا ورقيقا، ومعهم « يليان » فى جماعة من أهل البلد يدلهم على العورات ، ويتحسس لهم الأخبار ، فأقبل إليهم لذريق ومعه خيار أعاجم الأندلس وأبناء ملوكها ، فالتقى لذريق وطارق ، وهو بالجزيرة ، بموضع يقال له البحيرة ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزمت الميمنة والميسرة ، انهزم بهم « شبشرت وأبة » ابنا غيطشة ، ثم قابل القلب شيئا من قتال ، ثم انهزم لذريق ، وأذرع فيهم المسلمون بالقتل ، وغاب لذريق فلم يدر أين وقع^(١) .

وهكذا ينتهى نص أخبار مجموعة دون أن نستفيد شيئا يتصل بقصة الإحراق ، إلا أننا نستفيد من انهزام الميمنة والميسرة بقيادة ابنى غيطشة بعداً آخر يؤكد أسلوب طارق الحربى فى استعمال العقل والحيلة وحرب الأعصاب ما وجد إلى ذلك سبيلا .

إن هذين المصدرين - تاريخ ابن القوطية وأخبار مجموعة - هما أقدم المصادر الأندلسية التى بين أيدينا ، وهما يتميزان على المصادر السابقة التى نعرف منها : « فتوح مصر والمغرب والاندلس » لابن عبد الحكم ، و« مبتدأ خلق الدنيا » لابن حبيب - بأنهما مصدران ينتميان إلى المدرسة الأندلسية ، بل هما الاستهلال للكتابة التاريخية الأندلسية ، بينما كان ابن عبد الحكم وابن حبيب ينتميان إلى المدرسة

(١) ص ١٦ - ١٨ .

المصرية التي سبقت فى كتابة تاريخ الأندلس .

وبالإضافة إلى هذا فإن هذين المصدرين موضع ثقة من المؤرخين على الرغم مما عرف عن ابن القوطية من نزعة شعوبية تميل إلى الأندلسيين . . . بينما يصف الدكتور العبادى ابن الكردبوس - محقق الجزء الأندلسى من الاكتفاء لابن الكردبوس - بأنه (لم يذكر للأسف المصادر التى استقى منها معلوماته والتى اعتمد عليها فى كتابه)^(١).

ويصفه - أيضا - بأنه مولع بالغرائب والعجائب التى لا تحتل التصديق^(٢) ، وليس متكلفا أن نقول : إن نزعة الغرائب والعجائب هذه كانت - بالطبع - موجودة بدرجة ما فى معاصر ابن الكردبوس وشريكه فى إيران رواية إحراق السفن (الإدريسى) - على الأقل - اعتماداً على وجود هذا الجانب فى الأدب الجغرافى وأدب الرحلات بصفة عامة !!

ظهور رواية إحراق السفن :

ليس من المعقول - كما يقول الدكتور محمود مكى^(٣) - أن يخفى هذا الخبر الهام على كل المؤرخين السابقين ، فلا يعرفه إلا الإدريسى أبو عبد الله محمد ، الذى توفى سنة ٥٦٠ هـ ، وألف كتابه « نزهة المشتاق » سنة ٥٤٨ هـ ، ومعاصره أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس الذى لم تعرف سنة وفاته ، على خلاف فى أيهما سبق

(١) تاريخ الأندلس : لابن كردبوس . ص ١١ ، طبع معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١ ، مقدمة العبادى .

(٣) مرجع سابق .

(٢) المصدر السابق (مقدمة العبادى) : ص ٢٥

الآخر وأخذ عنه (١) ، وهو خلاف لا طائل وراءه فهما متعاصران ، وإن كنا نميل إلى سبق الإدريسي ، لأنه أكثر تفصيلاً ، وعنه أخذ الحميري محمد بن عبد الله صاحب « الروض المعطار » ، وهو الثالث الذي تبعهما في ترديد هذه الرواية ، كما أن من المرجح أن يكون ابن الكردبوس قد توفى في نهاية القرن السادس الهجري ، ويكون ثمة احتمال بسبق الإدريسي عنه في الزمان حتى وإن تعاصرا (٢) .

يقول الإدريسي : (لما جاز طارق بن معه من البرابر وتحصنوا بهذا الجبل ، أحس في نفسه أن العرب لا تثق به ، فأراد أن يزيح ذلك عنه فأمر بإحراق المراكب التي جاز عليها فتبرأ بذلك عما اتهم به) (٣) وعن الإدريسي - كما سنرى - أخذ الحميري . . . فأورد في « الروض المعطار » قوله :

(وإنما سمي بجبل طارق لأن طارق بن عبد الله لما جاز بالبربر الذين معه تحصن بهذا الجبل ، وقدر أن العرب لا يسنزلونه فأراد أن ينفى عن نفسه التهمة فأمر بإحراق المراكب التي جاز فيها فتبرأ بذلك مما اتهم به) (٤) .

(١) يلعب الدكتور محمود مكى إلى سبق الإدريسي ، ويلعب الدكتور أحمد السادى إلى سبق ابن الكردبوس . راجع المقالة السابقة لمكى ، وفي تاريخ العرب والاندلس للعبادى : ص ٦٣ وما بعدها

(٢) مقدمة تحقيق أحمد العبادى لنص ابن الكردبوس ، مدريد ١٩٧١ ، ص ٧ .

(٣) ترجمة المشتاق : ١٧٧/٢ ليدن ، بتحقيق دورى .

(٤) الروض المعطار ، ص ٧٥ (جزء مسلسل ١٠٠)

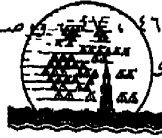
والتشابه بين النصين واضح لا يحتاج إلى تعليق ، أما ابن الكردبوس فقد جاءت عبارته مقتضبة في كتابه « الاكتفاء في أخبار الخلفاء » وذلك عندما عقب على المعركة التي خاضها المسلمون بقيادة طارق في فتح الأندلس : (معركة شدونه أو وادى لسكة أو وادى البيرباط) بقوله :

(ثم رحل طارق إلى قرطبة بعد أن أحرق المراكب وقال لأصحابه : قاتلوا أو موتوا) (١) .

وتعتبر هذه النصوص الثلاثة التي وردت عند الشريف الإدريسي والحميري - الناقل عن الإدريسي - وابن الكردبوس ، هي الأصل الذي اعتمدت عليه كل المصادر التاريخية والأدبية التي أشارت إلى قصة الإحراق .

ولا أثر للقصة - كما يثبت رصدنا هذا الذي حاولنا أن يصل إلى درجة الحصر - في بقية المصادر الأندلسية الأصلية ، سواء تلك التي سبقت هذه المصادر أو التي عاصرتها في القرن السادس أو التي لحقتها حتى نهاية القرن الثامن الهجري - كما ذكرنا سابقا .

(١) تاريخ الأندلس . لابن الكردبوس : ص ٦٤ ، ص ٦٥ ، وصفه لابن الشباط بصاد جديان ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العادى



إحراق السفن .. والأسطورة:

ربط بعض المفكرين بين قصة إحراق طارق بن زياد للسفن وبين عدد من الأساطير القريبة من القصة والتي شاعت هي الأخرى في التاريخ ونالت حظا كبيرا من الاهتمام ومن إضفاء العناصر الخيالية والأسطورية عليها .

وقد عقد الدكتور محمود على مكى^(١) مقارنة ضافية بين عدد من الأساطير تدور كلها حول إحراق القادة منهم لسفنهم ووضعهم جيوشهم أمام مأزق (النصر أو الموت) وذلك خلال بحث يحمل العنوان نفسه « أسطورة إحراق السفن فى التاريخ »^(٢) .

وهكذا - ابتداء - جعل الدكتور مكى من قصة إحراق طارق للسفن واحدة من الأساطير التى شاعت فى التاريخ ، وعالجها فى سياق عدد من الأساطير الشرقية والغربية - التى عرفت حول هذا الأمر .

ولقد ساق الدكتور مكى من الأساطير الشرقية أسطورة إحراق القائد وهرز الفارسي لمراكبه حين ساعد سيف بن ذى يزن فى تحرير اليمن والانتصار على الأحباش . وما سبق ذلك من إلقاء وهرز خطبة عصماء فى جنوده على النحو الذى سيذكره بعض المؤرخين فيما بعد فى فتح الأندلس . . .

(١) أحد المهتمين القلائل بالأدب الأندلسى والتاريخ الأندلسى ، ومحقق لقطع من المقتس لاهى حيان ، ووكيل معهد الدراسات الإسلامية عمريد سابقا ، وصاحب مؤلفات عدة .
(٢) انظر الكتاب التذكارى لقسم اللغة العربية وادابها بجامعة الكويت ١٩٧٧/١٩٧٦ .

ويرى الدكتور مكى أن أسطورة حرق وهرز لمراكبه ، وأسطورة الخطبة المرتبطة بالإحراق ، يعتبران نواة لهذه الأسطورة التي تعرض علينا مثلاً من أمثلة الفداء والتضحية سببصبح منذ ذلك الوقت خبراً محبباً لدى رواة قصص الحملات البحرية حيث يكون عدد الفاتحين أقل بكثير من عدد الجنود الذين يقومون بالدفاع عن الأرض المفتوحة^(١) .

وانتقالاً من أرض اليمن ، إلى أرض الأندلس ، وعبروا بالحقائق التاريخية المسلم بها في فتح الأندلس حتى انتهى أمر معركة الفتح - معركة شذونة - بهزيمة ساحقة للقوط ونصر عظيم للمسلمين في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢ هـ ، مع وجود فارق شاسع بين الجيشين المتحاربين - جيش القوط الذى تقدره بعض الروايات بمائة ألف وجيش المسلمين الذى يزيد قليلاً عن اثنى عشر ألف جندي - ومع وجود فارق في العدة والعتاد لصالح القوط ، ومع أن القوط كانوا دولة منظمة تدور الحرب على أرضها ووراءها رصيد بشري ومادى هائل ، بينما كان المسنمون خليطاً من العرب ومن البربر حديثي العهد بالإسلام وليس وراءهم - كما قال طارق - إلا البحر . . . ١١

انتقالاً إلى هذا الفتح العظيم الذى لا يرقى إليه شك يعلق الدكتور مكى بقوله :

(وكان من الطبيعي أن يلهب هذا النصر الهائل الذى أحرزه

(١) الدراسة السابقة الكتاب التذكاري لجامعة الكويت ١٩٧٦ م .

طارق أخيلة المسلمين بعد ذلك ، فإذا بهم يضيفون إلى رواية الفتح تفاصيل من صنع الخيال حول أسبابه وأحداثه وشخصياته ، وظلت هذه التفاصيل تتضخم جيلا بعد جيل حتى أصبح فتح الأندلس محاطا بحلقات ودوائر من الأساطير جعلت تميز خيوط الحقيقة التاريخية فيه من بين النسيج القصصى أمرا من الصعوبة بمكان (١) .

ثم يضيف رابطا بين أسطورة وهرز في اليمن وأسطورة إحراق طارق للسفن بقوله : (ولعلنا قد لاحظنا التشابه الواضح بين خبر إنزال طارق بن زياد جنوده بساحل الأندلس وبين ما تذكره الأخبار العربية القديمة عن وقائع فتح وهرز الفارسي وسيف بن ذى يزن لبلاد اليمن ، وهذا هو ما جعل كثيرا من أخبار الفتح اليمنى يتسرب إلى قصة فتح الأندلس) (٢) .

على أن أهم إضافة دخلت إلى رواية الفتح من قصة وهرز كانت حول أحداثه . فقد رأينا كيف عمد القائد الفارسي إلى إحراق مراكبه حتى يقطع على جنوده كل سبيل للتفكير في العودة أو في النكوص على أعقابهم ، فرأى بعض القصاص في عصور متأخرة أن يضيفوا قصة إحراق المراكب إلى أحداث الفتح الأندلسي ، ولعل ما دفعهم إلى ذلك كان ما جاء في نص خطبة طارق الأصلية : « ... أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، فليس لكم والله إلا الصبر والصبر » فقد رأوا أن خير ما يجسم هذا المعنى هو أن يجعلوا طارقا يحرق مراكبه (٣) .

ويدعم الدكتور مكى رأيه في أسطورية قصة حرق السفن في فتح

(٣) محمود على مكى ، مرجع سابق

(١ ، ٢) المكان السابق .

الأندلس حين يذكر أن اليمينية الذين عزيت إليهم الأسطورة الأولى كانوا من العناصر الأساسية في فتح الأندلس . . . فكان هذا الأسلوب في الترويح الأسطوري هو أسلوب يمينى معروف ، يقول الدكتور محمد مكى :

(يجدر بنا أن نشير بهذه المناسبة إلى أن كثيرا من رجال الفتح الأندلسي كانوا من أصول يمنية . وقد رأينا أن طريف بن مالك الذى قاد أول سرية استطلاعية حلت بشواطئ الأندلس كان من النخع أو من معافر على رأى بعض المؤرخين . ومن معافر أيضا كان على وجه التحقيق عبد الملك بن أبى عامر - الجدل الأعلى للحاجب المنصور بن أبى عامر - وكان من رجال طارق بن زياد وهو فاتح قرطاجنة من أعمال الجزيرة الخضراء ، هذا إلى عدد كبير من القبائل اليمينية التى استقرت منذ الفتح فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة ، ولا يبعد أن يكون لهؤلاء أو لأذريانهم نصيب فى إرفاد قصة فتح الأندلس بففاصيل من تلك الأقاصيص القديمة حول ملحمة سيف بن ذى يزن ونحريره اليمن من الأحباش) (١) .

وفى سنة (١٥١٩ م) - أى بعد سقوط الأندلس (١٤٩٢ م) بنحو ثلاثة عقود فقط قدم التاريخ الأسباني أسطورة حرق المراكب فى قصة فتح أسبانيا للمكسبك وهى القصة التى كان بطلها القائد أرنان كورتس (Arnan Cortes) وأيضا فقد خطب كورتس بعد إحراقه للسفن خطبة تشبه إلى حد كبير خطبة طارق (٢)

(١) المكان السابق .

(٢) انظر تاريخ المغرب والأندلس : د/ أحمد مختار العسدى ، طبع مؤسسة الثقافة الجامعية بالاسكندرية ، ص ٦٦ ، وانظر د/ محمود مكى ، المرحع السابق .

ونحن لا يهمنا الوقوف كثيرا عند الأسطورة الأخيرة ، فليست داخلية في موضوعنا ، وإنما يهمنا بيان هذا النهج الذى اعتمده بعض المؤرخين المعاصرين وعلى رأسهم الدكتور أحمد مختار العبادى ، والدكتور محمود على مكى ، فى معالجة قصة إحراق طارق للسفن .

ولقد كان الدكتور مكى صريحا واضحا فنفى - بكل وضوح - قضية إحراق طارق للسفن واعتبرها أسطورة . وقد عالجها الدكتور أحمد مختار العبادى بالمنهج نفسه إلا أنه انتهى إلى القول - مع ذلك - إلى أنه لا يستطيع نفى القصة أو إثباتها معتمدا فى ترده فى الحكم على (وقوع أحداث مماثلة) - حسب تعبيره .

ومن هذه الأحداث ما روى من أن فاتح صقلية أسد بن الفرات أراد هو الآخر حرق مراكبه حينما ثار عليه بعض جنوده وقواده وطالبوه بالانسحاب من الجزيرة والعودة إلى القيروان بسبب المجاعة التى حاقت بهم . . . فأراد حرق المراكب . . . لكنه ضرب ابن قادم زعيم المترددى فماتت دعوة التردد وعادت العزيمة إلى الأنفس (١) .

ونحن لا ندرى ما هى الأحداث المماثلة التى وقعت واتكأ عليها الدكتور العبادى فى هذه القصة حتى يبرر ترده فى الحكم ؟

إن مجرد إرادة أو إيهام أسد بن الفرات لجنوده بأنه يريد - أو أنه قادر- على إحراق السفن ليس حدثا يأخذ شكل الواقعة التاريخية ويتكى عليه ، فهذه الإرادة أو الإيهام أو التهديد للجنود أمر لا ضير

(١) رياض النفوس ١/ ١٨٨ ، نقلا عن العبادى ، المرجع السابق .

فيه ، بل قد يكون مطلوبا ، وهو جائز بكل المقاييس العسكرية والشرعية ، أما تنفيذ ذلك ، والتضحية الانتحارية بجيش بأكمله ، وبأسطول قد يصعب تعويضه ، فهو الأمر الخطير الذى يجب أن نتوقف عنده . وهو ما لم يقدم لنا الدكتور العبادى دليلا عليه ، مع أنه أيد عدم وجود هذه القصة فى المصادر التاريخية التى ظهرت فى القرون الأربعة التالية . . .

بيد أننا نتفق مع الدكتور العبادى فى أن قصة حرق المراكب - أو أسطورتها - كانت شائعة ومعروفة فى أسبانيا ، لدرجة أن بعض الأسبان قد تأثروا بها وحاولوا تطبيقها فى بعض أعمالهم الحربية ، ومازال الأسبان يستعملون مثلا شعبيا معناه « أحرقت كل سفنى » ^(١) « أو بذلت كل طاقتى » (He Quemado Todasnaves)

- ونحن لا نستبعد أن يكون التراث الشعبى الأسباني الذى راعته بطولة المسلمين الفاتحة فى واقعة الفتح صاحب الفضل فى نسج هذه القصة ، تقليلا من شأن النصر ، إذ هو لم يتم إلا بعمل انتحارى ، وليس بإيمان فى ظل ظروف عادية . ولقد ظهر نوع مستقل من الأغانى الشعبية الأسبانية المجسدة لقصة الصراع بين المسلمين والنصارى ، وهى أغان كان يطلق عليها أغانى الحدود Romances Fra nterizos ^(٢) ولعل هذا النوع من الأدب هو المسؤول عن اختراع هذه القصة . ثم تلقفها بعض المسلمين ، فبدت وكأنها إسلامية المنشأ .

(١) د/ العبادى ، المكان السابق

(٢) د/ مكى ، المرجع السابق .

ولعل فى ظهور هذه القصة بعد سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) -
وليس قبلها - وفى فترة تأجج الصراع فيما يعرف بعصر الاسترداد ،
وبداية تخاذل الجبهة الإسلامية الأندلسية وتفككها . لعل فى ظهور
هذه القصة فى هذا الزمان - وليس قبله - دليلا على أن موطن هذه
الأسطورة كان أسبانيا النصرانية ، ثم نسربت إلى الأندلس الإسلامية
التي كانت فى حاجة إلى بطولات تقوم على الأساطير ؛ لأنها
عجزت عن حل مشكلات حاضرها على ضوء حقائق تاريخها الذى
صعب عليها ترسم خطاه .

لقد كان حديث فتح الأندلس - فى عصور اضمحلال أمر
المسلمين ، وسقوط المدن الإسلامية - بما فى هذا الفتح من مشاهد
بطولة رائعة - كان حديث الفتح هذا من أكثر ما بجرى على ألسنة
المسلمين فى هذه البلاد ، وما يثير فى نفسهم من مشاعر النحر
والاعتزاز ، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا : إن هذا الحديث كان يزاد ترده
وإضافة المزيد إلى تفاصيله كلما تزايد ضعف المسلمين فى الأندلس
واشتد ضغط القوى النصرانية عليهم ، فقد كانوا يحاولون أن
يستمدوا من أحاديث الفتح وسبر أبطاله ما يشد العزائم الخائرة ،
ويحيى الهمم المتهاكة .

أما نصارى الأندلس فإنهم لم يكونوا يقلون عن المسلمين إقبالا
على هذه الأحاديث ورغبة فيها ، فقد كانوا يريدون أن يتخذوا من
ذلك الماضى عظة وعبرة ، هذا فضلا عن الإعجاب الخالص
بالبطولة ، حتى وإن كان البطل خصما لا مفر من مجالدته وقتاله .

وقد رأينا متلا لذلك فى مجموعة من الأغانى الشعبية الأسبانية تنتمى إلى ما كانوا يسمونه (أغانى الحدود) وهى تتناول الصراع الطويل بين المسلمين والنصارى على مناطق الحدود ، وفيها مع ذلك كثير من مشاعر الإعجاب بفروسية الخصم المسلم وبسالته . وقد حمل ذلك نصارى أسبانيا على تتبع أخبار فتح الأندلس وملاحم الصراع بين الإسلام والمسيحية فيما تلا الفتح من العصور ، بل كان لهم نصيب فى إضافة كثير من الأحاديث القصصية والأسطورية إلى تلك الأخبار^(١) .

وهكذا - سواء من جانب الجبهة الإسلامية أم الأسبانية - نرى الصلة وثيقة بين إحراف طارق بن زياد للسفن ، وبين الأسطورة ، وقد رأى الطرفان مصلحة فى استغلال الأسطورة ، هذا للتغنى بالماضى حين عز عليه الحاضر القوى ، وذاك للانتقاص من قيمة نصر طارق فى فتح الأندلس .

(١) محمود على مكى ، المرجع السابق .

خطبة طارق ...

ما مدى دلالتها على حرق السفن ؟

يعتمد القائلون بحرق طارق بن زياد للسفن التي عبر عليها على بعض العبارات التي وردت في الخطبة المنسوبة إليه ، والتي توهم بوقوع هذا الإحراق - من وجهة نظرهم - أو توهم بعدم وجود أسطول سواء كان قد أحرق أم أبعد ، كما تفيد النصوص من وجهة نظرنا - II بيد أننا لا نجد ما يوجب أن يكون عدم وجود الأسطول على الشواطئ الأسبانية مفيداً - بالضرورة - لوقوع الإحراق ، فقد يكون طارق قد أمر الأسطول بالابتعاد عن الشاطئ ، لإيهام الجند بأن (البحر من ورائهم) وبالعودة إلى المغرب لإحضار مزيد من المؤن أو العتاد .

على أن عبارة (البحر من ورائكم) الذائعة لا توجب بالضرورة إحراق السفن أو ابتعادها . فوجود السفن في البحر لا يعنى أن البحر قد تحول برأ ، وأن مخاطر الانسحاب مأمونة بالكامل ، بل ثمة خسائر كثيرة يمكن أن تقع عند الهزيمة مع وجود السفن أيضا . وبالتالي فقد يصح ورود العبارة مع وجود السفن ولا تعارض بين الأمرين ، إذ البحر من وراء الجنود والعدو من أمامهم على كل حال .

بيد أن المشكلة الحقيقية هي في مدى الثبوت التاريخي لخطبة طارق نفسها ، فالنقد التاريخي الحديث المتكئ على المصادر ، وعلى النقد المنطقي يشكك في نسبة الخطبة إلى طارق ، أو على الأقل في

نسبة هذه النصوص البلاغية التي شاعت فى كتب الأدب وبعض كتب التاريخ للخطبة .

ومع هذه الشكوك - فإن الاستدلال بالخطبة على نبوت الإحراق يبدو استدلالاً بضعف على ضعف .

إن مصدر المشكلة فى خطبة طارق - كما ذكرنا - هو هذه البلاغة التى تميزت بها الخطبة مع أن طارقاً عرف بأنه بربرى الأصل . . . فمن أين له هذه البلاغة ؟

ولقد اختلفت النصوص التى وردت بها الخطبة وتباينت ، وكان هذا من عوامل الشك فيها .

وقبل أن نتكلم فى مدى الصدق التاريخى لهذه الخطبة ، نوردها وفق أكثر نصوصها شيوخاً وبلاغة فى كتب التاريخ والبلاغة ، وبالتالى نفى وقفه متأنية أمام قضية صدقها التاريخى .

وهذا نص خطبة طارق بن زياد عند فتح الأندلس ، كما وردت فى « نفح الطيب » لأحمد المقرئ التلمسانى (١) :

« أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللثام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا ورر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام

(١) ١ / ٢٢٥ طبع بيروت .

على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ، ذهب ربحكم وتعوضت القلوب من رعبها بنكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم . بمناجزة هذا الطاغية . ففد ألقى به إليكم مدينته الحصنة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم دونى على خطة أرخص متاع فيها النفوس ، أبدأ بنفسى . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألد طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفر من حظى ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الخيرات العميمة . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم للملك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان وسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم نواب الله على إعلائه كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ودون المؤمنين سواكم ، والله تعالى ولى إنجازكم على ما بكون لكم ذكرا فى الدارين . واعلموا أى أول مجيب إلى ما دعونكم إليه ، وأنسى عند ملتقى الجمع حامل بنفسى على طاغية القوم (لذريق) فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معى ، فإن هلك بعدة فقد كفيت أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلك قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله » .

فإذا تركنا هذه الصيغة التى أوردها المقرئ صاحب نفع الطيب ، والتى تعتبر أكثر الصغ الواردة للخطبة إطنابا وبياناً وبلاغة ، فإننا لا

نكاد نجد صيغه تشابه معها فى أى مصدر من المصادر ، اللهم إلا فى الذين نقلوا عن نفح الطيب ، ولا قيمة لرواياتهم لأنهم محدثون نقلية . بل إن ابن الكردبوس الذى يعتبر من الفلاّئل الذين أثاروا للخطبة قد أورد لها بصورة جد مقتضبة . . . ونحن ننقل نصه كاملا ليعرف حجم اقتضابه . . . يقول :

(ورحل طارق نحو قرطبة بعد أن أحرق المراكب (١)) وقال لأصحابه : قاتلوا أو موتوا) ثم يقول :

(ورحل لذريق قاصدا قرطبة يريد طارقا ، فلما تسدأنا ، تخبر لذريق رجلا شجاعا عارفا بالحروب ومكائدها ، وأمره أن يدخل فى عسكر طارق فيرى صفاتهم وهيأتهم ، فمضى حتى دخل فى محله المسلمين ، فأشبه به طارق فأمر ببعض القتلى أن نقطع لحومهم وتطبخ . فأخذ الناس القتلى ، فقطعوا لحومهم وطبخوها ، ولم يشك رسول لذريق أنهم يأكلونها . فلما جن الليل أمر طارق بهرق تلك اللحوم ودفنها ، وذبح بقرا وغنما وجعل لحومها فى تلك القدور . وأصبح الناس فنودى فيهم بالاجتماع إلى الطعام فأكلوا عنده ، ورسول لذريق يأكل معهم . فلما فرغوا ، انصرف الرسول إلى لذريق وقال له : أتتكم أمة تأكل لحوم الموتى من بنى آدم ، صفاتهم الصفات التى وجدنا فى البيت المقفل ، قد أحرقوا مراكبهم ، ووطنوا على (الموت والفتح) فداخل لذريق وجيشه من الجزع ما لم يطنوا (١) .

(١) تاريخ الأندلس ، مسئلة من الاكتفاء لابن الكردبوس ص ٤١ - ٤٧ شحقق العادى .

. . وهذا كل ما أورده ابن الكردبوس عن خطبة طارق
العصماء!!

بيد أنها وردت في أقدم المصادر الأندلسية التي كتبت عن الفتح
الإسلامي لأسبانيا على النحو التالي :

(أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ،
فليس لكم والله إلا الصدق والصبر . ألا وإنى قادم إلى طاغيتهم
بنفسى لا أقصر حتى أخالطه أو أقتل دونه) (١) .

ولسنا في حاجة بعد هذين النصين أن نتتبع بقية الروايات التي
وردت بها (خطبة طارق) . . . وحسبنا أن نذكر أن هذه الخطبة
لا تكاد ترد - إن وردت - في مصدرين على نحو متشابه في
الألفاظ والتعابير ، وإن اقتربت من المضمون . . وهو أمر يؤكد
لنا أن (أسلوب) الخطبة قد لعبت فيه أهواء البلاغة والبيان ، وتلقاه
كل ناقل بما يجب من الفصاحة ، فأضفى عليه من نفسه وأسقط عليه
من فصاحته .

ولهذا نجد نصها في تاريخ عبد الملك بن حبيب (٢) مختلفا عن
نصها في « الإمامة والسياسة » المعزو لابن قتيبة الدينوري (٣) . وهما
يختلفان عن النص الوارد عند ابن خلكان (٤) وعن النص الوارد عند

(١) تاريخ ابن حبيب (نص خاص بافتتاح الأندلس) ، حققه الدكتور محمود مكى طحيفة
مدريد ١٩٥٧ .

(٢) المكان السابق . (٣) ١١٧ / ٢ .

(٤) وفيات الأعيان ٤٠ / ٤٠٤ تحقيق محيى الدين عبد الحميد .

المقرى التلمساني صاحب « نفح الطيب » (١) .

ولا تكاد توجد نصوص للخطبة في غير هذه المصادر التاريخية، باستثناء كتب الأدب والبلاغة التي لا يعول كثيرا عليها في ثبوت النصوص التاريخية ؛ لأنها تركز في الأعم الأغلب على مضمون النص أكثر من صحته التاريخية .

وقد أورد ابن عذارى المراكشي في كتابه الموسوعي « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » عدداً من الآراء حول موقعة وادي لكسة أو شذونة - وهي المعركة الكبرى التي انتهت بفتح الأندلس على يد طارق سنة ٩٢ هـ - ومقدماتها ، فنقل عن (عريب) ، وعن صالح بن أبي صالح ، وعن ابن القطان ، وعن الرازي ، وعن الواقدي ، وعن عيسى بن محمد من ولد أبي المهاجر دينار ، وعن غيرهم (٢) ، لكنه - مع ذلك - لم يورد أدنى إشارة إلى هذه الخطبة . ولا إلى إحراق طارق للمراكب ١١ كما أن ابن الأثير في «الكامل» ذكر أنه يكتب ما يكتب عن فتح الأندلس (من تصانيف أهلها إذ هم أعلم ببلادهم) (٣) ، ومع ذلك فلم يذكر شيئاً عن خطبة طارق .

بل إن الدكتور محمود على مكى - وهو الشبث المحقق في التاريخ الأندلسي وأدبه - يرى أن هذه الخطبة دخلتها عناصر أسطورية مثلما دخلت غيرها ، بل لعلها - في رأيه - مستحدثة على غرار الخطبة الأسطورية المختلقة التي نسبت إلى وهرز فاتح اليمن صحبة

(٢) ٢ / ٤ ، ٨ طبع بيروت .

(١) مكان سابق .

(٣) الكامل : ٥٥٦ / ٤ طبع بيروت ، دار صادر

سيف بن ذى يزن . . . وهو يقول بهذا الصدد :

(وربما كان أول مظهر لهذا التسرب - تسرب أسطورة وهرز إلى الفتح الأندلسي - ما نراه فى خطبة طارق بن زياد ، وقد كان نصها القديم الموجز الذى ورد عند عبد الملك بن حبيب مماثلا فى خطوطه العامة لنص خطبة وهرز كما ساقها لنا هشام الكلبي . غير أن مثل هذا النص المحكم البديع لم يكن ليرضى أخيلة الناس فى العصور المتأخرة فإذا بهم يضيفون إليه فتستطيل الخطبة حتى تبلغ أضعاف نصها الأول ، وكأن ذلك لم يكفهم فإذا بهم يزوقونها بألوان من السجع وزخارف الألفاظ إلى حد يجعل الباحث يحكم من النظرة الأولى بأن الخطبة تعرضت لزيادات متعاقبة لا شك فى أنها مصنوعة^(١) .

والسؤال الوارد هنا - فى ظل هذا العرض :

ما مدى الصدق التاريخى فى هذه الخطبة من جانب ، وفى نسبتها إلى طارق بن زياد من جانب آخر ؟

أما الصدق التاريخى فى (جوهر) خطبة طارق بن زياد فنحن نميل إليه ، فهو أمر درج عليه الفاتحون العرب والمسلمون ، ذلك لأن المسلمين كانوا يعتمدون فى انتصارهم على الروح المنوية ، والإيمان القوى بالله وبما أعده للشهداء ، فكانت حروبهم تهدف إلى غايتين لا

(١) محمود على مكى : الكتاب التذكارى لجامعة الكويت ١٩٧٦ مقال حول أسطورة حرق السفن .

ثالث لهما : النصر لإعلاء كلمة الله أو الشهادة .

ولو أننا تعمقنا فى بعض روايات خطبة طارق لوجدنا فيها عبارة (القتل أو الفتح) أو (انتصروا أو موتوا) ، وهما - فيما أعتقد - الترجمة لعبارة (النصر أو الشهادة) التى أعتقد أن طارق بن زياد قد خطب بها ، وبشيء حولها ، فى أصحابه .

أما من ناحية (نص الخطبة) بهذه الديباجة المشرقة والسجع غير المتكلف ، والببان الرائع - الذى ورد فى النص الذى تتداوله الكتب الأدبية والمدرسية - فهذا ما أستبعد أن له أساساً تاريخياً ، سواء من ناحية انقطاع السند أو المتن .

فمن ناحية انقطاع السند : نعرف أن الخطبة لم ترد إلا بعد عدة قرون تصل إلى العشرة ، إذا ما نظرنا إلى رواية نفح الطيب الذائعة الصيت . . أما ما قبلها من الروايات فليس فيها شيء من هذه الديباجة المشرقة - على النحو الذى بسطناه سلفاً .

ومن ناحية المتن : فإنه من المستبعد عقلياً أن يكون طارق بن زياد قادراً على صياغة تلك الخطبة ، ولا سيما وأن مثل هذه الخطبة تقال ارتجالاً فى الغالب ولا تقال بعد إعداد وتدبج . ومبعض عدم قدرة طارق على إعداد تلك الخطبة أنه كان (بربرى الأصل) - على أرجح الآراء وأقواها وأكثرها - فهو بربرى من (نفزة) كان مولى لموسى بن نصير من سبى البربر . وقال آخرون : إنه فارسى ، والنتيجة واحدة . فهو أعجمى على أية حال ، وإن كنا نرجح - كما ذكرنا - بربرته . . . وقد أورد صالح بن أبى صالح فى نسبه - كما نقله عنه

ابن عذارى : - أنه (طارق بن زياد بن عبد الله بن رفهون بن ورفجوم بن نيزغاش بن ولهاص بن يطوفت بن نغزاو) (١) .

وليست المشكلة فقط في (بربرية) طارق التي يتعذر معها - مع حداثة العهد بالعربية - إبداع مثل هذه الخطبة . بل المشكلة - أيضا - في الجيش المتلقى للخطبة ، إذ أن هذا الجيش - كذلك - كان معظمه من البربر . فكيف توجه خطبة بهذه الرصانة العربية لجيش بربري ؟ وما فائدتها في هذا الوقت العصيب الذي يراد فيه لكل كلمة أن تؤتي ثمارها ؟ ومن هنا فنحن نرجح أنه ربما ألقى خطبته باللسان البربري ، ثم ترجمها إلى العربية بعض من كانوا في الجيش حتى تصل معانيها إلى عنصرى الجيش معا ، وهما البربر والعرب .

ونحن نرى أن إطار الخطبة كان هو الإطار المحدود الذي ألمحنا إليه - وهو النصر أو الشهادة - ثم جاء المدونون والكتاب العرب فتوسعوا فيها - جريا على عادتهم - بالبيان والسجع والتحلية والإطناب .

ومعروف أنه في عصور مختلفة - من حضارتنا - لم تكن المترجمات تلتزم بالديباجة الجافة للأصل المترجم عنه ، بل تعتمد إلى (تعريب) المنقول لفظا وأسلوبا . . . بل نحاول إفراغه في روح عربية لو استطاعت إلى ذلك سبيلا .

فلهذا ألبست خطبة طارق الثوب العربى ، وتوسع فيها ألفاظا

(١) البيان المغرب ٥/٢ بتحقيق بروفنسال ، وشر بيروت .

ومعاني حتى وصلتنا بهذه الصورة النى نقلها إلينا المقرئ التلمساني
فى كتابه « نفح الطيب وغصن الأندلس الرطيب » .

وهذا ما نراه فصل الخطاب فى هذه الخطبة التى دخلت الأدب
- كخطبة عصماء - من أوسع الأبواب . لكن مساربها بدأت تضيق
عندما حاولت الدخول فى مجال التاريخ .

وفى ضوء هذا التحليل - سواء حول ثبوت نص الخطبة أو حول
دالتها على حرق السفن - يبدو أن الاعتماد على الخطبة فى إثبات
قصة إحراق السفن ليس استدلالاً فى موضعه ، فليست الخطبة قطعية
الشبوت . وإذا ثبتت - فى صورتها الوجيزة التى وردت عند ابن
حبيب - والتى يمكن نسبتها إلى طارق - فليست - مع ذلك - قطعية
الدلالة ، بل إنها بعيدة كل البعد عن الدلالة المباشرة لإحراق السفن ،
وتحتل فى دلالتها أكثر من وجه ، ولهذا تكاد تفقد قيمتها بالنسبة
لقضية إحراق السفن .

قضية إحراق طارق للسفن

فى نظر المؤرخين المحدثين

وردت قصة إحراق السفن كمسلمة تاريخية لدى كثير من الكتب المدرسية والشعبية فى العصر الحديث ، وتكاد القصة ترد دون وقوف عندها أو تحليل لها لدى عدد كبير من هؤلاء . ولم نشأ أن نقف عند هذه البحوث التى كتبت بأقلام غير متخصصين ، لأنه أمر يخرج عن نطاق البحث العلمى الرصين ، وحسبنا أن نقف عند المراجع التاريخية العلمية ، لأنها - على الأقل - أكثر من غيرها ، وقد وقفت من القضية موقف التمهيص والتحليل .

ولم نجد فيما بين أيدينا من المراجع التاريخية الحديثة من ذهب إلى تأييد قصة إحراق السفن إلا عدداً محدوداً من المراجع^(١) ، ومن الغريب أن الدكتور أحمد مختار العبادى ، بعد أن يورد صلة القصة بالطابع الأسطورى عند الشعب الأسبانى ، ينتهى القول بالتردد فى الحكم^(٢) .

النافون والمتجاهلون للقصة من المؤرخين المحدثين :

أما النافون للقصة فهم الجماهرة الغالبة من المتخصصين فى

(١) انظر . مرسوعة التاريخ الإسلامى : د/ أحمد شلى ح ٤ طبع القاهرة ، و مع المسلمون فى الأندلس : على حبيبة ، و تاريخ الإسلام السياسى : حسن إبراهيم : ١ / ٣٢ ط ٩ مصر ، والإسلام والحضارة العربية : محمد كرد على ص ٢٥٣ ط مصر .
(٢) فى تاريخ المغرب والأندلس : ص ٦٦ ، طبع مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية

الدراسات التاريخية والأندلسية ، وكل ما يلاحظ في هذا المقام هو أن معظم هؤلاء لم يقف عند القصة الوقفة الكافية التي تتناسب وشيوع القصة في الذهنية المعاصرة .

بل إن كثيراً منهم قد تجاهلها بالمرّة ، ولم يورد لها ذكراً على الإطلاق ، مع أننا لا نعتقد أن هذا التجاهل قد يكون من باب السهو ، فليست القصة حدثاً ثانوياً أو أمراً عابراً بهذه الدرجة (١) .

ومن المعروف أن الأمير شبيب أرسلان كان يقف موقف المحلل للكثير من القضايا ، ومع ذلك فهو لم يعرض لقصة الإحراق ، وإنما اكتفى بذكر بعض المسلمات التاريخية كقوله : (إن موسى جرد تجريدة لاثني عشر ألف مقاتل كان أكثرهم من البربر ، فعقد عليهم لطارق بن زياد ، فهزم طارق بهذا الجيش الصغير جيش القوط كله واحتز رأس للدريق وبعث به إلى الخليفة في دمشق (١١) ، وفي أقل من سنة تم لطارق فتح قرطبة ومالقة وطليلة ، وقد روى أحد مؤرخي العرب أنه لأجل أن يلقى الرعب في القلوب أمر مرة بقتل بعض الأسرى الذين وقعوا في يده وجعل من لحومهم شواء أطعم منه عسكره . وطارق بن زياد هو الذي سمى باسمه هذا الصخر المسمى بجبل طارق (٢) .

(١) من هؤلاء على سبيل المثال . الدكتور إبراهيم بيصون في كتابه : الدولة العربية في أسبانيا ط بيروت ص ٧٢ ، ٧٣ ، ومنهم محمد حسن قجه في كتابه : محطات أندلسية ط دار السعدية ١٩٨٥ ص ١٦ ، ١٧ ، ومنهم جورجى زيدان في رواية فتح الأندلس ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، وانظر الدكتور السيد عبد العزيز سالم ٣٥٨/٢ ، ٢٥٩ نشر الاسكندرية والدكتور أحمد شكرى : قرطبة في العصر الإسلامى ص ١ ، ١١ ط ١٩٨٣ ولطفي عبد المديع : الإسلام في أسبانيا ص ٣ / ط ٢ مصر .

(٢) تاريخ غزوات العرب . ص ٢٩ ، ٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت

وهذا كل ما أورده شكيب أرسلان فى المقام الذى كنا نطمح فيه أن يورد شيئا عن قصة إحراق السفن .

أما المؤرخ العسكرى الأستاذ محمود شيت خطاب - وهو الذى عرف عنه وقوفه عند مثل هذه الوقائع بتحليلها من الوجهة العسكرية « والاستراتيجية » على الأقل - فإنه لم يقف عندها كذلك إطلاقا ، وكل ما ذكره حول فتوحات طارق أن طارقا فتح مدينة قرطاجنة الجزيرة ثم زحف غربا واستولى على المنطقة المحيطة بها وأقام قاعدة حربية فى موضع يقابل الجزيرة الخضراء ، وبعد معارك محلية أكمل المسلمون فتح الجزيرة الخضراء وسيطروا على المجار إلى الأندلس ، فزحف لذريرق لصد المسلمين ، فكتب طارق إلى موسى بأن لذريرق زحف إليه بما لا قبل له به ، فأرسل إليه مدداً من خمسة آلاف من المسلمين ، والتقى الجيشان فى يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة اثنتين وتسعين هجرية / ١٩ يوليو سنة ٧١١ م على وادى برباط أو وادى لكة قرب مدينة شذونة ، واستمرت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة ، وكانت هذه المعركة هى المعركة الحاسمة التى فتحت أبواب الأندلس للمسلمين (١) .

وهكذا عبر القصة - بتجاهل تام - كاتبان كبيران كنا نتوقع منهما أن يقفا عندها وأن يحللاها التحليل المناسب لتخصص كل منهما ، أولهما من الناحية الإسلامية والتاريخية ، وثانيهما من الناحية

(١) قادة فتح المغرب ١/ ٢٤٥ ، ٢٤٦ ط دار الفكر ١٩٧٨ م .

العسكرية ، ولكنهما آثرا أن يتجاهلها بالمرّة !!

الرافضون للقصة من المؤرخين المحدثين :

أما أستاذنا المؤرخ محمد عبد الله عنان فقد عالج قضية إحراق السفن فى القسم الأول - العصر الأول - من موسوعته حول دولة الإسلام فى الأندلس ، فقد مال إلى نفي القصة ، وإن كان قد تردد فذكر أنها (عمل بطولة يتفق مع بطولة فاتح الأندلس) (١) ونحن لا نرى فيها - لو صحت - أية بطولة ، بل نراها عملا انتحارياً لا يقدم عليه المسلمون ، ومع ذلك فالأستاذ عنان يميل إلى نفيها - كما ذكرنا - بل هو يراها (واقعة يغلب عليها لون الأسطورة وإن كانت مع ذلك تعرض فى ثوب التاريخ الحق) (٢).

ويقدم الأستاذ عنان لنفيها عدداً من الأدلة منها : أننا (نعرف أن الكونت يوليان هو الذى قدم السفن التى ركبها العرب إلى الأندلس فى بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك ، ثم فى حملتهم الغازية بقيادة طارق ، وهنا تذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى الشاطئ الأندلسى حتى أمر بإحراق السفن التى عبر عليها جيشه ، وذلك لئلا يدفع جنده إلى الاستبسال والموت أو النصر المحقق ، ويقطع عليهم بذلك كل تفكير فى التخاذل والارتداد . فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟) .

(١) ص ٤٩ مكتبة الخانجي - الطبعة الرابعة - القاهرة ١٩٦٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٨ .

ويجب الأستاذ عنان على تساؤله :

(إن جميع الروايات الإسلامية التى تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة ، ولا تذكرها الرواية الإسلامية إلا فى موطن واحد ، فقد ذكر الشريف الإدريسي فى معجمه الجغرافى « نزهة المشتاق » عند الكلام على جغرافية الأندلس أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس ، وقد نقلت بعض التواريخ النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الإدريسي فيما يرجح ، وفيما عدا ذلك فإن جميع الروايات الإسلامية تمر عليها بالصمت المطلق .

وقد يقال : إن فى الخطاب المنسوب إلى طارق ما يؤيد صحة هذه الرواية ، فطارق يستهله بقوله : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر » . وفى ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى السطاطى الإفريقى ، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التى حملته فى عرض البحر إلى أسبانيا ، ولكننا رأينا أن هذا الخطاب لا يمكن الاعتماد عليه من الوجهة التاريخية كوثيقة بعيدة عن شوائب الربب . ولو صح أن طارقاً ألقى فى جنده مثل هذا الخطاب فقد نجد تفسيراً لقوله فى أن السفن كانت ملكاً للكونت يوليان وفى أنها لم تكن تحت تصرف الغزاة فى جميع الأوقات (١) .

وهكذا يميل الأستاذ عنان - وهو أحد الباحثين المعاصرين الكبار فى التاريخ الأندلسى - إلى استبعاد (أسطورة) إحراق السفن

(١) المرجع السابق : ص ٤٨ ، ٤٩ .

- حسب تعبيره - وهو يقدم لنا - وهذا هو الجديد فى رأيه - تفسيراً لخطبة طارق التى توهم منها بعضهم - واستدل بها - على أن طارقاً أحرق السفن ؛ لأن عبارة (البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم) قد نعى ملكية يوليان للسفن ، وعدم قدرة المسلمين - بالتالى - على جعلها طوع أوامرهم . . وهو مجرد افتراض من أستاذنا الكبير ، ونحن لا نميل إليه ، لأننا لا نؤيد القول بأن المسلمين لم يكن لديهم أسطولهم الخاص بعد موقعة ذات الصوارى (٣٥ هـ) البحرية بنحو ستين سنة !! ، كما أن الاستراتيجية العسكرية السليمة تقضى باستبعاد هذا الفرض ، فضلاً عن النصوص التاريخية المؤيدة لوجود سفن لدى المسلمين أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد .

على أن أستاذنا الدكتور حسين مؤنس لم يقف وهو يؤرخ لفتح الأندلس عند قصة إحراق طارق للسفن ، ليس عن إهمال أو نسيان لها ، ولكن لأنه - كما بدا لنا - لا يراها جديرة بالوقوف عندها ، فهو لم يشأ أن يعرض لها فى متن كتابه « فجر الأندلس » ، وإنما اكتفى بإيراد إشارة وجيزة فى الهامش يذكر فيها أن المؤرخين المحدثين يميلون (إلى القول بأن طارقاً عمد إلى السفن التى عبر عليها فأحرقها لكى يقطع كل أمل لجنوده فى العودة إلى إفريقية ، وليدفعهم إلى الاستبسال فى القتال ، ولم يذكر تلك الواقعة من القدماء إلا الإدريسى وهو من رجال القرن الثانى عشر الميلادى - كتب جغرافيته سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م - ولهذا نشك فى صحة هذا الخبر ، ثم إن طارقاً لم يستطع إحراق السفن لأنها لم تكن ملكه بل كانت ليليان^(١) .

(١) فجر الأندلس ، ص ٦٩ ، الدار السعودية للنشر الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ .

وقد أورد الدكتور مؤنس هذا الهامش وهو يتحدث عن تحصين طارق للموضع المعروف بجبل طارق تحصيناً طيباً ليتخذ منه حصناً يحتوى به المسلمون إذا حدث ما لم يكن منتظراً^(١) . فكان الدكتور مؤنس يثبت في المتن - من خلال إبرازه لتحصين طارق للموقع - ما يؤكد وجود احتمال للانسحاب لدى طارق ، وهو بهذا ومن خلال التوضيح في الهامش ينفي تلك القصة الشائعة القائلة بحرق طارق للسفن ، فكان دحضها عنده لا يستحق أن يوضع في المتن ولا أن يلقي اهتماماً أكثر من هذا القدر الهامشي .

أما الدكتور عبد الرحمن الحجى في كتابه « التاريخ الأندلسي » ، فقد أنكر قصة حرق السفن هذه من منطلق عقلى وإسلامى خالص . وقد أدار حواراً حول بعض الحجج التى يوردها القائلون بحرق طارق للسفن ، ثم رد على ما طرحه هؤلاء من حجج .

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجى : (هل حقاً أن طارقاً أحرق السفن التى عبر بها المضيق ، كى يقطع على الجيش الإسلامى كل أمل فى العودة فيستमित فى الدفاع ؟ ذكر بعض المؤرخين ذلك . لكن لماذا يحرق طارق السفن ، سواء امتلكها المسلمون أو يلىان ؟ كأن طارقاً وجيشه يقاتلون من أجل عقيدة ، وأنهم من ساعة عبورهم جاؤوا مجاهدين مستعدين للشهادة ، وطارق متأكد من هذه المعانى .

فإذا كانت السفن لىلىان فليس من حق طارق التصرف بها . وإن كانت للمسلمين فليس حرقها عملاً عسكرياً سليماً أو مناسباً ، مادام

(١) المكان السابق

يحتاج إليها وإلى النجدة والاتصال الدائم بالمغرب لأى غرض ، وقد رأينا كيف احتاج إلى النجدة قبل خوض هذه المعركة ، واحتاجها فيما بعد .

إن دوافع المعانى الإسلامية والهدف الذى جاء الجيش من أجله لأقوى فى الاندفاع من أى سبب آخر ، وما كان المسلمون يتخلفون عن خوض معركة أو تقديم أنفسهم لإعلاء كلمة الله ، بل لذلك أتوا . والمصادر الأندلسية - لا سيما الأولى - لا تشير إلى قصة حرق السفن التى لا تخلو من علاقة وارتباط بقصة الخطبة (١) .

ومن المؤرخين المعاصرين المتخصصين فى الدراسات الأندلسية الذين وقفوا عند القصة وأدلو فيها برأى - الدكتور محمد عبد الحميد عيسى فى كتابه عن « الفتح الإسلامى للأندلس » فقد جاء فى كتابه آنف الذكر (٢) :

(حاولت ، مع اقتناعى الكامل بعدم حدوث هذه الواقعة تاريخيا واقتناعى الكامل بأن طارق بن زياد ما كان لبقدم على مثل هذا العمل ، أن أجد تعليلا لظهور هذه القضية فى بعض المدونات التاريخية ، والفراة المتأنية لذلك الخبر عند ابن الكردبوس ، وعند المقرئ يمكنها أن تلقى الضوء على تلك المسألة التى اختلف حولها المؤرخون ، يتحدث ابن الكردبوس عن جاسوس دسه لذريق ملك

(١) التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط عرابة (٩٢ - ٨٩٧) : د/عبد الحميد على الحجي: ص ٦٢، طبع دار القلم بدمشق والكويت الطبعة الأولى ١٣٩٦.

(٢) ص ١١٧ هامش - طبع القاهرة - أولى - ١٩٨٥ م

أسبانيا داخل الجيش الإسلامى ليتعرف له على دخليتهم ، ويشعر المسلمون بالجاناسوس ، فلا يقبضون عليه ، إنما يستفيدون من وجوده ، ويأمر طارق جنوده ، بأن يقطعوا جثث الموتى من أسراهم ، ويضعوها فى القصور ويغلوها على النار ، ثم يقومون خلسة برمى لحم الموتى ، ويحلون محلها البقر والغنم ثم يدعون الناس للطعام ، فيتصور الجاسوس أن المسلمين يأكلون لحوم البشر ، ومن هنا : هل عمل المسلمون نفس الشيء وأوهموا الجاسوس حرقهم لمراكبهم؟^(١).

مجرد إشاعة سرت بين المسلمين فحسب ، وتحدثوا بها لإيقاع الرعب فى قلوب عدوهم وهذا ما حدث بالفعل ، عاد الرجل إلى لذريق ليقول له : (أتتكم أمة تأكل لحوم الموتى من بنى آدم صفاتهم الصفات التى وجدنا فى البيت المقل ، قد أحرقوا مراكبهم ، ووطنوا على الموت أو الفتح ، فداخل لذريق من ذلك وجيشه من الجزع ما لم يظنوا)^(٢) .

ولعل رواية المقرئ أكثر وضوحاً وتؤيد هذا الاتجاه الذى أتصوره ، فهو بعد أن يقص رواية هذا الرجل الذى دسه لذريق فى صفوف المسلمين ، يذكر بأنه عاد إلى لذريق ليقول له : فقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك ، قد حرقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التعلق بها ، وصفوا فى السهل موطنين

(١) إننا نميل إلى إمكانية وقوع هذا . . وهو مما يجوز حريياً من وجهة النظر الإسلامية ، وانظر بقية النص وتحليلاً له عند حديثنا عن رأينا فى القضية فى نهاية البحث .

(٢) انظر ابن الكردبوس ص ٤٨ ، ٤٩ .

أنفسهم على النبات ، إذ ليس لهم فى أرضنا مكان مهرب ، فرعب وتضاعف جزعة (١) .

وقد تعرض لفصّة إحراق السفن من المعاصرين - أيضا - الدكتور محمد محمد زينون خلال دراسة له عن « الفتح الإسلامى للأندلس » (٢) ، فرأى أن طارقا لم يحرق السفن (لأنه يعلم أن الجنود الذين عبروا معه ليسوا هم القوة الوحيدة التى يملكها الجيش الإسلامى حتى يضطر إلى قطع أملهم فى التقهقر إذا أرغمتهم الظروف إلى ذلك) (٣) .

ويضيف الباحث أن طارقاً يعلم أنه قد اضطر قبل خوض المعركة إلى طلب المدد من موسى بن نصير عندما رأى كثرة جنود القوط ، فأمدّه بخمسة آلاف جندي عبرت بهم السفن إلى الأندلس ، ولا شك أنه لو طلب مدداً ثانياً أو ثالثاً لأمدّه موسى . فعلى فرض صحة ما يروى من إحراق السفن ، فكيف كان المدد الذى يرسله إليه موسى يستطيع أن يصل إليه ؟ .

وأخيراً يتساءل الباحث : كيف عبر موسى بجيشه الذى بلغ ثمانية عشر ألفاً بعد ذلك بعام واحد ؟ (٤)

والباحث محق فى تساؤله ، فإن فرصة عام واحد لا تكفى لباء

(١) نفع الطيب : ٢٥٨/١

(٢) دراسة منشورة بمجلة كلية العلوم الاجتماعية بالرياض العدد الخامس ١٤٠١ هـ .

(٤) المكان السابق

(٣) المكان السابق .

أسطول جديد . . . ثم إن بناء الأسطول عمل ليس سهلا ، بل يقتضى الجهد والمال والرجال . . . ونحن نضيف عددا من التساؤلات من جانبنا :

ما الفائدة من هدم أسطول لبنى آخر ؟

وهل كان الأمر يقتضى المغامرة بهذا العدد من المسلمين ؟

ولقد دخل المسلمون قبل فتح الأندلس معارك كبرى ذات تأثير (استراتيجى) أعظم من فتح الأندلس ، فلماذا لم يييحوا لأنفسهم مثل هذا العمل الانتحارى ؟

ولنفترض أن المسلمين قد هزموا لأول جولة فى فتح الأندلس ، ألم تكن هناك فرص أخرى للكر . . . كما هزموا غير مرة فى فتحهم للمغرب الذى استمر فتحهم له أكثر من ستين سنة ؟
إن كل هذه التساؤلات تثير علامات استفهام كبيرة حول قصة إحراق السفن .

وينفى القصة ويورد أسباب نفية لها الدكتور عبد العظيم رمضان - أحد المؤرخين المعاصرين - فيقول :

(وفى الواقع فإن طارق بن زياد لم يكن ليجرؤ على حرق مراكبه لسبيين) :

الأول :

أنها كانت مراكب مختلطة ، أى مراكب يملكها جولييان حاكم

سبته ، ومراكب إسلامية من الأسطول الإسلامي الذى بناه موسى
ابن نصير .

الثانى :

أن حملة طارق لم تكن سوى البداية فى فتح الأندلس ، وكانت
القوة العسكرية التى عبرت تحت قيادته إلى الشاطئ الأسباني غير
كافية لإتمام هذا الفتح . وكان طارق يعرف أنه إن عاجلا أو آجلا ،
سوف يطلب الإمدادات والنجادات من موسى بن نصير . وبالتالي
فقد كان فى حاجة إلى المزيد من السفن لهذا الغرض وليس إحراق
السفن ١ . ومن ثم فإن قصة حرق المراكب تبدو خيالية تماما ، ولا
يوجد ما يبررها عقلا (١) .

وهكذا - ومن خلال هذا العرض الذى حاولنا فيه الوصول إلى
شبه استقصاء لآراء المؤرخين المعاصرين فى قضية إحراق السفن - نجد
أن هذه القصة لم تتمتع بالتأييد من المؤرخين المحدثين ، بل تعرضت
للنقد من شتى الجوانب ، ولم تستطع أن تقف على أرض ثابتة .

(١) الحقيقة التاريخية فى فتح الأندلس ، مجلة أكتوبر عدد ٤٠٧ / ١٢ / ٨ / ١٩٨٤ .

إحراق السفن فى الإطار الشرعى

كان لا بد من الوقوف مع قصة إحراق السفن وقفة تعتمد على أوثق مناهج النقد ، ليس لمجرد إثبات وقوعها من عدمه ، بل لأن لهذه القصة بعداً آخر غير بعدها التاريخى ، وهو البعد التشريعى والإسلامى ، فالحديث يدور عن فترة تنتمى إلى عصر التابعين ، وحتى فتح الأندلس ، وجبوش طارق بن زياد ، وموسى بن نصير كان فيها تابعيون كذلك . ولقد كان بعض الصحابة المشهورين أحياء إلى أيام الوليد بن عبد الملك ^(١) ، ولربما وجد عدد كبير من الصحابة من غير المشهورين ، ومع ذلك فاتفق التابعين أو إقرارهم على عمل ما ، دون أن يلقى الرفض أو المقاومة ، إنما يمثل موافقة منهم ، وهم أهل للاحتجاج بأعمالهم فى عالم التشريع ، فما يعقل أن يتواطأ التابعون على منكر لا يقره الإسلام .

وعلى هذا الأساس فإن لنا أن نتساءل : كيف سكّت التابعون على إحراق طارق للسفن ؟ وهل يعنى هذا مشروعية هذا العمل من الناحية الإسلامية ؟ وفى عصر كعصر التابعين ولما بنته القرن الأول الهجرى : هل نسمح هذه البيئة الإسلامية بإحراق السفن دون معارضة ، ودون احتجاج من الساسة أو الفقهاء أو المفكرين أو الشعراء ؟ لقد اختلف الصحابة من قبل وتقاتلوا من أجل مقتل عثمان

(١) نحن نذكر منهم أس بن مالك حادم الرسول ﷺ .

والخلاف على أسبقية القصاص أو استتباب الحكم ، وكل منهم كان يؤمن بأنه يقاتل عن مبدأ شرعى ؟ ولمجتهدهم المخطئ أجر وللمصيب أجران . فهل يتواطأ التابعون على إحراق أسطول إسلامى فى وقت هم فيه أحوج ما يكونون إلى الأساطيل لمواجهة الرومان؟!؟

ومن زاوية أخرى - شرعية أيضا - هل يجوز فى الإسلام مبدأ المغامرات الانتحارية ؟ لقد انسحب المسلمون بقيادة خالد بن الوليد فى موقعة (مؤتة) بعد استشهاد جعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، حين أدرك خالد ومعظم الجيش أن المعركة انتحارية إزاء هذا الفارق فى العدد بين جيش المسلمين وجيش الروم . وقد كان هناك مسلمون فدائيون يطلبون الاستمرار فى القتال ، ومع ذلك أثر الجيش الانسحاب بقيادة خالد بن الوليد ، وسماهم الرسول عليه الصلاة والسلام (الكرار) ردا على من سخروا منهم فى المدينة وسموهم (الفرار) . أليس هذا السلوك النبوى تشريعا إسلاميا يحرم المغامرات الانتحارية ، ويجيز الانسحاب فى حالة وجود مفاجآت تجعل المعركة إبادة للمسلمين ؟ وبالنسبة لقصة إحراق طارق للسفن هل كان ثمة موجب لهذا الإحراق مع أنه لم يكن يعلم شيئا عن نتيجة المعركة ؟ فإذا كان طارق قد توقع الهزيمة للجيش الإسلامى ومن أجل هذا أحرق السفن فإنه يدخل فى باب المغامرات الانتحارية التى يحرمها الإسلام . وهو بهذا - ومن معه من التابعين - لم يستوعبوا التوجيه النبوى فى (مؤتة) وهو مالا يمكن القبول به .

وإذا كان قد توقع النصر فما جدوى إحراق السفن ؟

وهذه الخسارة المالية التي لا جدوى كبيرة وراءها في عصر يصعب فيه صناعة السفن ، والتي يمكن أن توجد طرق بديلة عنها ، هل هي جائزة شرعا ؟

إن كل هذه الجوانب ، سواء تلك التي تتصل بالتضحية بالبشر (اثني عشر ألف جندي وسبعمائة تقريباً) (١) ، أم بالسفن - تجعل من إقدام طارق على هذا الإحراق عملاً مخالفاً بالشرعية ، وهو مالا يمكن للتابعين - بشكل يشبه التواطؤ - أن يسكتوا عليه ، أو على الأقل أن لا يظهر أى خلاف فقهي حوله . . . لكن هذا السكوت يعنى أنه لم تكن هناك قضية من هذا القبيل ، ولم يثر بالتالى أى خلاف ، لأنه لا يمكن إثارة أى خلاف حول قضية لم تحدث فعلاً ، وهو ما تميل إليه ، بالنسبة لتابعى صالح مثل طارق بن زياد ، وبالنسبة لمن معه من التابعين رضى الله عنهم .

إن روح التاريخ الإسلامى التى تستضيء بالشرعية - ولا سيما فى هذه العصور - لا تميل إلى هذا اللون من السلوك ، فالنظرة الإسلامية للحروب تميل إلى الحفز المعنوى والأخلاقى الروحى - لا إلى هذا القهر الانتحارى - كما تميل إلى الرغبة فى النصر لرفع كلمة الإسلام أو الشهادة لنيل الجنة ورضا الله .

وقد هزم المسلمون فى غزوات وسرايا كثيرة حتى أيام الرسول ﷺ

(١) أحوار مجموعة • لمجهول : ص ١٧ ، ونفح الطيب ١/ ٣٩٦ ، ٣٩٩ .

من أبرزها غزوة أحد ، كما زلزلوا زلزالا شديداً في غزوة الخندق .
ومع ذلك فلم يرد أى تفكير حول هذا السلوك الانتحارى ، وقد
كان المسلمون يعتبرون الهزيمة تمحيصا وابتلاء أراداه الله ليختبرهم
وليتخذ منهم شهداء ، وقد دخلوا معارك مصيرية كثيرة أمام الروم
والفرس ولم يفكروا فى مثل هذا الأسلوب ، فهل ينتهى بهم المطاف
إلى هذا العمل الانتحارى فى معركة فرعية وغير مصيرية مثل فتح
الأندلس ١١٩

إن هذا ما نستبعده ، بل نراه غير ممكن الوقوع ، لمخالفته - على
الأقل - للأصول الشرعية ولروح النظرة الإسلامية للحروب .

رأينا فى القضية

إن رأى الباحث فى الدراسات التاريخية ، ولا سيما فى القضايا التى لم يعاصرها إنما يتكئ بالدرجة الأولى على المصادر المعاصرة أو القريبة من الواقعة - وهذا ما يعرف فى علم الحديث (بنقد السند) - ثم إنه يتكئ بالدرجة الثانية على النقد الداخلى للواقعة من ناحية منطقيتها ومعقوليتها وملاءمتها لروح عصرها وللقوانين والتقاليد التى كانت مسيطرة إبان وقوعها ، وهذا - إذا ما استعرنا مصطلحات علم الحديث مرة أخرى - هو ما يعرف (بنقد المتن) .

ونحن فى الدراسات التاريخية نأخذ بجانبى النقد معا ، ونرى أن نقد المتن لا يقل فى أهميته عن نقد السند ، وأنهما فى مستوى واحد من الأهمية .

أولا : نقد السند :

وواضح من العرض السابق لقضية إحراق السفن أنها لا تصمد فى باب نقد السند ، فسندھا منقطع انقطاعا كبيرا لا يستطيع أن يتجاهله أى منهج لنقد السند ، وقد بلغ الانقطاع حداً لا يقبله المنهج التاريخى مهما كان تجاوزه وتسامحه بالنسبة لمنهج المحدثين . فهناك - أولا - فترة انقطاع عامة فى مصادر الدراسات التاريخية الأندلسية والمغربية ، فإذا كان فتح الأندلس قد بدأ سنة ٩٢ هـ وانتهى سنة ٩٥ هـ وعاد طارق بن زياد وموسى بن نصير إلى المشرق خلال

الشهور الأخيرة من سنة ٩٥ هـ - على ما نرجح - فإن المصادر التاريخية الأندلسية المدونة لم تظهر إلا في القرن الثالث الهجرى على يد ابن عبد الحكم المصرى وابن حبيب (ت ٤٣٨ هـ) وهو انقطاع فى الزمان يدعمه انقطاع فى المكان . إذ أن هذين المؤرخين لم يكن انتماءهما للأندلس ، على الرغم من أن ابن حبيب أندلسى الأصل ، لكنهما مثلاً المدرسة المصرية البائدة فى تدوين التاريخ الأندلسى .

ومع هذا ، فإن قصة إحراق طارف للسفن لم تظهر فى هذين المصدرين ولا فى مصادر القرون التالية ، حتى منتصف القرن السادس الهجرى . أى أن هناك انقطاعين ، انقطاعاً يكفى لدحض القصة - منذ البداية - إذا أخذنا بمنهج المحدثين ، وهو الانقطاع الأول الذى وقع فيما بين فتح الأندلس (٩٣ هـ) وظهور مدرسة ابن عبد الحكم وابن حبيب فى القرن الثالث الهجرى ، وهو انقطاع عام فى الدراسات التاريخية الأندلسية . أما إذا تجاوزنا منهج المحدثين العظيم الذى لم تستطع الدراسات التاريخية - حتى اليوم - الوصول إليه ، وإن كان من الضرورى الاقتراب منه قدر الاستطاعة ، نقول :

إذا تجاوزنا - مضطرين - هذا المنهج الحديثى ، ونظرنا إلى الواقعة من زاوية الانقطاع الثانى ، وهو الانقطاع الذى وقع بين ظهور المدرسة الأندلسية التاريخية سواء على يد المدرسة المصرية (ابن عبد الحكم وابن حبيب) أم على يد بواكير المدرسة الأندلسية الأصلية فى القرن الرابع الهجرى (ابن القوطية وابن عريب والخشنى وابن الفرضى وغيرهم) فسوف نجد أن لدينا انقطاعاً يصل إلى أكثر من أربعة قرون ونصف القرن (٩٢ - فتح طارق - إلى ٥٤٨ هـ مع ظهور كتاب

الإدريسي ثم كتاب ابن الكردبوس) . فهل يمكن أن تقبل واقعة انقطع سندها ، وانقطعت كل مصادرها هذا العدد من القرون ؟!

وجدير بالذكر أنه من سوء حظ الدراسات الأندلسية أن كثيرا من المصادر المتعلقة بفترة الفتح - بخاصة - وبتاريخ المسلمين في الأندلس - بعامة - مفقودة نتيجة الإتلاف المتعمد الذي قام به رجال الكنسية المتعصبون في فترات متعددة من التاريخ بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٩هـ (١٤٩٢ م) . ففي سنة ٩٥٠ هـ (١٤٩٩ م) - على سبيل المثال لا الحصر - أتلقت أعداد كبيرة من المخطوطات بصورة متعمدة ، وذلك تنفيذا للقرار المتعسف الذي اتخذته الكاردينال جيمينيث - (Ximenez) والذي تسبب في حرق ثمانين ألفاً من الكتب العربية في الساحات العامة لغرناطة (١) . أما بقية المخطوطات التي نجت من هذا التلغ المتعمد ، فقد ظلت في حوزة رهبان غير مثقفين ، أو على رفوف بعض المكتبات حتى جمعت من قبل الملك فيليب الثاني (١٥٥٦ - ١٥٩٨ م وحفظت في دير الأسكوريال (٢) ، ومع هذا فقد احترقت ثلاثة أرباع هذه المجموعة سنة ١٠٨٢ هـ - ١٦٧١ م)

(1) Pascual De Gayanzos The History Of The Mohammedan Dynasties in Spain ,New York 1964, Vol . IPP. VIII - IX

نقلا عن الدكتور عبد الواحد ذنون طه ص ١٧ ، ٣٧ في كتابه : (الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس طبع ١٩٨٢ العراق (٢) قارن :

S.M. Lmamuddin, (Sources Of Muslim History Of Spain) : Journal Of The Pakistan Historical Society, I, 1953,P.358

لاندلاع حريق فى الأسكوريال (١) .

وهذه مجرد أمثلة لضياح تراثنا الأندلسى ، تعكس مدى الانقطاع الذى يفصلنا عن كثير من حقائق هذا التاريخ .

ويزيد فى صعوبة الأمر أن أيا من المؤرخين الثلاثة الأول الذين روى هذه القصة وهم الإدريسى وابن الكردبوس والحميرى - الذى نقل عن الإدريسى - لم يذكر لنا واحد منهم أية مصادر سابقة نقل عنها ، حتى يقرب لنا مساحة الانقطاع ، أو يدلنا على بعض الضوء فى هذه الظلمات .

كما أن الحميرى - كما أثبتنا - مجرد ناقل حرفى عن الإدريسى ، فلا يعتد به .

وهكذا ننتهى إلى أننا لا نملك - من ناحية السند - إلا أن نشك - على الأقل - فى ثبوت إحراق طارق للسفن .

فإذا أضفنا إلى هذا تطبيق بعض معايير المحدثين فى النظر إلى الرجال الناقلين ، إذ أن ابن الكردبوس كان مجرداً - كما ذكرنا - (٢) وأنه لم يكن ثقة فى كثير مما يكتبه ، ولربما كان يعتمد على الأقوال الشائعة التى تشبه الحكايات والأساطير فى عهده .

(1) Pascual De Gayanzos, Op.Cik.Vol.Ip.IX

نقلا عن الدكتور عبد الواحد دنون طه ص ١٧ ، ٣٧ .

(٢) نقلا عن محقق القطعة الأندلسية من كتاب (الدكتور أحمد مختار العبادى) مرجع سابق .

أما الإدريسي فلإن طبيعته الجغرافية التي من شأنها أن تقبل ما يحكى فى الرحلات من بعض المبالغات نجعلنا لا نفرق كثيرا بينه وبين ابن الكردبوس ، وعلى خطأ الإدريسي سار الحميرى دون تمحيص !!
إذا أضفنا هذا - أى نقد الرجال الناقلين - فإننا نميل إلى رفض هذه القصة من ناحية انقطاع السند وتجريح الناقلين . وهذا هو الأساس المكين الأول فى رفض هذه القصة !!

ثانيا : النقد التاريخي لمضمون قصة إحراق السفن :

إن تتبع الدقيق لخطوات موسى بن نصير وطارق بن زياد في فتح الأندلس يجعلنا نشكك في دعوى إحراق طارق للسفن ، اللهم إلا إذا افترضنا افتراضا خياليا محضاً بأن طارق بن زياد كان يثق في أن نتيجة المعركة ستكون لصالح المسلمين ، وهو ما لا يمكن التيقن منه (عقلا) في مواجهة جيش الفوط الكبير الذي تحدده أقل الروايات بثلاثة أضعاف المسلمين في العدد ، وأكثر من ذلك كثيرا في الإمكانيات والعدد . وتصل به بعض الروايات إلى تسعة أضعاف الجيش الإسلامي (١) .

لقد ظهر حرص موسى بن نصير وطارق بن زياد على أرواح المسلمين في فتح الأندلس منذ بداية التفكير في الفتح ، ولقد كانت أوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك واضحة في هذا الصدد ، فقد أمر واليه موسى بن نصير بأن يثريث في الفتح ، وأن يختبر الأندلس بالسرايا ولا يغامر بأرواح المسلمين (٢) .

ولقد استجاب موسى لتعليمات الخليفة ، فأرسل سريتين استطلاعتين إحداهما بقيادة جولييان حاكم سبته ، وثانيتهما بقيادة طريف بن مالك (٣) ولما اطمأن موسى إلى إمكانية الفتح كلف طارقا

(١) أخبار مجموعة : لمؤلف مجهول : ص ١٧ وابن الكردبوس . مصدر سابق . ص ٤٧ والعبر . لابن خلدون : ١١٧/٤

(٢) أخبار مجموعة : ص ١٦ وابن الكردبوس : مرجع سابق ٤٥

(٣) أخبار مجموعة ، بتحقيق الإيباري ص ١٦ ، وابن الكردبوس . مرجع سابق ٤٦ ، ٤٥ . وانظر مجهول . وصف الأندلس وتاريخها بتحقيق حسين مؤنس (مجلد ١٨ /

١٩٧٤ مدريد مجلة معهد الدراسات الإسلامية ص ١٢٧) .

بالاستعداد لقيادة الحملة ، ثقة منه فى شخصية طارق ، وفى حسن بلائه وخبرته ومكانته فى البربر المسلمين (١) .

وعندما عبر طارق العدو الأندلسية ، ودخل الجزيرة الخضراء ، وقبل أن يتقدم إلى الموقعة الفاصلة - موقعة شذونة - التى سيلتقى فيها بلدريق إمبراطور القوط بنا فى جبل الفتح حصنا منيعا ليتحصن به هو ومن معه ، ثم بنا حصن أم حكيم فى الجزيرة المسماة باسمها حتى اليوم ، ولم يكتف بهذا بل إنه بنا سوراً يسمى سور العرب يضمن به طريق العودة عند الضرورة (٢) . . وفى الوقت نفسه فقد أرسل طارق كتيبة قوية بقيادة عبد الملك بن عامر المعافى لافتتاح حصن قرطاجنة الذى يقع فى سفح جبل طارق (٣) شمال غرب جبل طارق، وبعد افتتاح هذا الحصن وقعت كل المناطق المحيطة بمنطقة المضيق بيد المسلمين ، وتولى عبد الملك المعافى مسئولية السيطرة على الجزيرة الخضراء يساعده فى ذلك جوليان ، وبهذا حميت مؤخرة جيش طارق

-
- (١) وصف الأندلس ١٢٨ المؤلف مجهول : تحقيق مؤنس (كان طارق مسئولاً عن عدد كبير من المسلمين البرابرة مثل مصمودة وجراة وجراة وكتامة وزناتة وهوارة ، وقد كان مغيث الرومى يصف طارقاً للخليفة سليمان بن عبد الملك بأنه لو أمر المسلمين بالصلاة إلى أى قبله شاءوا لتبعوه وهذه كلها دلالات على مكانة طارق (انظر ابن الشباط ١٠٣ - ضمن تاريخ الأندلس لابن الكردوس تحقيق العبادى مصدر سابق ، وانظر فتح الطيب : للمقرئ ١٣/٣ بتحقيق مان عباس بيروت ١٩٦٨)
- (٢) البيان المغرب : لابن عذارى المراكشى . تحقيق بروفنسال ٩/٢ طبع دار الثقافة بيروت، وانظر تاريخ المغرب والأندلس لأحمد مختار العبادى فى ٦٨ .
- (٣) انظر ابن عذارى المصدر السابق ٩/٢ ونفح الطيب : ٢٣٣/١ و الفتح الإسلامى للأندلس : محمد عبد الحميد عيسى ص ١١١ طبع القاهرة ١٩٨٥ .

وأصبحت خطوط اتصالاته مع شمال إفريقيا آمنة^(١) ، وأقام المسلمون حزام أمان يربطهم بالشاطئ الإفريقي ، ويضمن لهم عدم المهاجمة ، ويؤمن لهم طريق الإمدادات والارتداد إذا ما قدر الله لهم مكروها^(٢) .

وهذه الإجراءات كلها تقتضي اقتضاء مباشراً أن يكون طارق قد وضع في خطته حساباً للهزيمة والانسحاب ، ووضع الضمانات الكفيلة بحماية جيشه المنسحب ، وهو ما يتناقض مع القول بإحراقه للسفن ، لأن قصة إحراق السفن تقوم على أساس معادلة محددة (النصر أو الموت) ولا مكان فيها للانسحاب .

وعندما اقترب طارق من معركته مع القوط وعلم بعدد الجيش القوطي الكبير أرسل إلى موسى يطلب منه المدد ، أو كما يقول صاحب « أخبار مجموعة » : (يستفذه ويخبره بأن ملك الأندلس قد رحف إليه بما لا طاقة له به)^(٣) . وسلوك طارق على هذا النحو يؤكد الاتجاه العاقل والحكيم والحريص على أرواح المسلمين ، فهو لا يلجأ إلى مغامرات غير مأمونة ولا يميل إلى أسلوب المجازفة بأرواح المسلمين . وحتى عندما يهزم طارق جيش القوط ، ويتقدم فيفتح كورة شدونة ، ثم يتقدم فيلاحق المنهزمين ، ويفتح فلعة استجة ، ومورور في محافظة أشبيلية ، ويتمكن من احتلال طليطلة عاصمة

(١) الفتح الإسلامي والاستقرار العربي الإسلامي . عبد الوهاب دنون طه . ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) الفتح الإسلامي للأندلس : ص ١١١

(٣) انظر : مؤلف مجهول : أحوار مجموعة ، ص ١٧ وتاريخ المغرب والأندلس . ص ٦٩ .

القوط وبعض القلاع والوديان حولها^(١) ، هنا يتوقف طارق عند هذا الحد ، ويستقر فى طليطلة ويرسل إلى موسى بن نصير يدعوه لمساعدته ، ويرسم له خطة القدوم ليكمل فتح المناطق التى لم يتمكن طارق ولا مساعدوه من فتحها .

وفعلا يتقدم موسى سنة (٩٣هـ) بجيش قوامه ثمانية عشر ألف جندي أكثرهم من العرب ، فيفتح أشبيلية وقرمونة وماردة وغيرها من مدن الغرب الأسباني حتى يلتقى بطارق على نهر التاجة . فمثل هذه الحيلة من طارق ، وهو يحتل عاصمة البلاد تدل على أنه قائد حكيم يقدر لخطواته وقبعتها ولطاقته حجمها ، ولا يميل إلى المغامرات الانتحارية أو غير المحسوبة .

وهكذا - من خلال هذا العرض لوقائع جهود طارق فى فتح الأندلس - لا نجد ما يدلنا على وجود طبيعة اندفاعية عند طارق ، بل نجد كل الوقائع تؤكد اعتماده على التخطيط وتجنب المخاطرة بالأرواح والمغامرات غير المحسوبة .

وأما ما تذكره بعض المصادر من أنه قد اندفع إلى طليطلة بعد أن أرسل فرقا من جيشه إلى مالقة ومرسية وقرطبة^(٢) ، وهو ما يفهم منه أنه اندفع نحو طليطلة بعدد قليل ، وأن ذلك كان مغامرة منه ، فالصحيح أن طارقا لم يرسل إلا حملة مغيث الرومى إلى قرطبة ،

(١) انظر الكامل : لابن الأثير : ٥٦٤/٤ ، ونفع الطيب ٢٦١/١ و الفتح والاستقرار العربى الإسلامى : ص ١٧٠ .

(٢) انظر أخبار مجموعة : ص ١٩ ، ٢٠ ، والكامل : ٥٦٣/٤ ، والبيان المغرب : ٩/٢ ونفع الطيب : ٢٦٠/١ .

بل هناك من يرى أنه هو الذى فتح قرطبة أيضا (١) ، وبديهي أنه هو الذى فتح بجيشه الموحد بقية المدن التى كانت فى طريقه إلى طليطلة .

وأما مالقة ومرسية فثبت أن موسى بن نصير هو الذى فتحهما فى حملته التى أكمل بها فتوحات طارق (٢) ، كما أنه من الضرورى القول بأن تقدم طارق نحو طليطلة كان عملا عسكريا ضروريا حتى يمنع القوط من التقاط أنفاسهم وتوحيد صفوفهم (٣) ، وهو الأمر الذى قدره له موسى بن نصير بعد أن التقى به فى طليطلة ، وقد سارا معا بعد ذلك لفتح بقية مدن الأندلس بعد أن كان موسى قد اقتنع بوجهة نظر طارق فى التخطيط للفتح ، وبضروره استقرار المسلمين الدائم فى الأراضى المفتوحة ، وهذا الأمر واضح جدا من التفاهم المتبادل ، والتعاون المشترك الذى سار بين القائدين خلال فتوحاتهما المشتركة (٤) فى الوسط والشمال الأسباني .

لكن هناك أمرا آخر أمكن رصده فى أسلوب طارق فى فتح الأندلس ، وهو أمر يفتح لنا الباب للتعرف على شتى جوانب المنهج الحربى لهذا القائد ، كما يدلنا - عند التحليل العميق - على رافد من الروافد الاحتمالية التى انطلقت منها قصة إحراق طارق للسفن .

لقد نحدث عدد من مؤرخى الفتح الإسلامى لأسبانيا - من أمثال ابن الكردبوس والمقرئ - عن بعض الأساليب التى كان يتبعها طارق

(١) مجموعة تاريخ الأندلس : لاس الشاط : ص ١٤١ ، تحقيق العبادى ، مدريد ، والبيان المغرب ١١/٢ .

(٢) البيان المغرب . ١١/٢ (٣) د/ عبد الواحد طه ' مرجع سابق ' ص ١٧١

(٤) عبد الواحد ذنون : مرجع سابق ص ١٧١

فى تحطيم الروح المعنوية عند خصومه القوط ، وقد ذكروا منها أنه عمد إلى بعض الأسرى ، فأمر بذبحهم وطبخهم ومن ثم قام بأكل لحومهم المطبوخة هو ومن معه فى الجيش .

يقول ابن الكردبوس - أحد الثلاثة الذين عزيت إليهم قصة إحراق السفن - : (ورحل لذريق قاصدا قرطبة يريد طارقا ، فلما تدانبا تخير لذريق رجلا شجاعا عارفا بالحروب ومكائدها ، وأمره أن يدخل عسكر طارق فيرى صفاتهم وهيأتهم ، فمضى حتى دخل فى محلة المسلمين ، فأحس طارق فأمر ببعض القتلى أن تقطع لحومهم وتطبخ فأخذ الناس القتلى ، فقطعوا لحومهم وطبخوها ، ولم يشك رسول لذريق أنهم يأكلونها ، فلما جن الليل أمر طارق بهرق تلك اللحوم ودفنها ، وذبح بقرا وغنما وجعل لحومها فى تلك القدور . وأصبح الناس فنودى فيهم للاجتماع إلى الطعام فأكلوا عنده ، ورسول لذريق يأكل معهم ، فلما فرغوا انصرف الرسول إلى لذريق وقال له : أتتلك أمة تأكل لحوم الموتى من بنى آدم ، صفاتهم الصفات التى وجدنا فى السبب المفضل ، قد أحرقوا مراكبهم ، ووطنوا على الموت أو الفتح . فداخل لذريق وجيشه من الجزع ما لم يظنوا)^(١) .

ويَدَّهَى أن هذه القصة لم تقع ، وإنما هى حيلة من طارق بن

(١) تاريخ الأندلس من الاكتفاء : ص ٤٧ ، ٤٨ بتحقيق أحمد مختار العبادى - نشر مدريد ، وانظر مؤلف مجهول (وصف الأندلس وتاريخه) بتحقيق حسين مؤنس ص ١٢٨ مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية عدد ١٩٧٤ / ١٩٧٥ (المجلد ١٨) وانظر تاريخ افتتاح الأندلس : لاس القوطية : ص ٣٥ ، ونص ابن القوطية موجود فى الصفحات السابقة عد الحديث عن فتح طارق للأندلس فى المصادر الأندلسية .

زياد فى تحطيم الروح المعنوية للخصم ، إذ أنه أراد أن ينقل هذه الصورة عن طريق الجواسيس الذين كان يعلم بوجودهم ، وبأنهم سينقلون ما يرونه إلى القوط وإمبراطورهم وقائدهم للدريق (١) .

ونحن نرى فى هذه القصة جرأة طارق بن زياد فى اللجوء إلى (خدعة) تقوم على أساس غير شرعى ، فالشريعة الإسلامية لا تقبل - بداهة - ذبح الأسرى ، ولا حتى طيخ الموتى إذا كانوا قد ماتوا ، ولا أكلهم فى حال مثل حال طارق وجيشه ، لكنها الحرب التى تقوم على الخدعة ، والتى يباح فيها مثل هذا اللون من الخداع وغيره . لكن لا يباح فيها - بالطبع - ارتكاب مثل هذه الأعمال على الحقيقة . وهنا نتساءل :

ألا يمكن أن تكون قصة إحراق طارق للسفن حيلة مشابهة لهذه الحيلة ؟

إن ثمة عناصر مشتركة بين الحيلتين ، فكلاهما غير جائزة - على الحقيقة - شرعاً وكلاهما كان من الممكن - لو صحت حقيقة - أن تلقى احتجاجاً من جمهور المسلمين أو من بعضهم على الأقل ، وكلاهما يهدف إلى تثبيت المسلمين وترويع القوط والإيحاء إليهم بأنهم أمام جيش غير عادى ، يؤثر الموت على الحياة ، ويركب فى سبيل النصر أصعب المراكب .

إن هذا ما نراه ينسجم مع أسلوب طارق الحربى ، ولهذا فنحن نميل إلى أن يكون طارق قد أمر بإبعاد السفن عن الشواطئ فى اتجاه

(١) انظر الفتح الإسلامى للأندلس : ص ١١٧ وما بعدها

الساحل المغربى ، وعندما ابتعد الجيش - بدوره - عن الشواطئ متجها إلى شذونة لضرورات الفتح أمر طارق بإشعال النار فى بعض الأخشاب أو الأشجار ، ثم أوهم المسلمين والقوط على السواء بأن الأسطول قد أحرق ، وأنه لا سبيل أمام المسلمين إلا القتال أو الموت ، وأنه يجب على القوط أن يواجهوا جيشا قد باع كل شىء ، وليس أمامه إلا طريق الاستماتة فى سبيل النصر .

ويؤكد رأينا هذا ذلك الاحتمال الآخر القائم على أن كلمة (حرق) إنما كانت فى الأصل بالخفاء (حرق) وأن تصحيحاً وقع فيها عند النطق ، كما يؤكد رأينا كذلك تلك البديهية العقلية التى تفبدنا أن أى هدف يمكن تحقيقه دون خسائر أولى من تحقيقه بخسائر ، فضلا عن الخسائر الفادحة ، وبالتالي فمادام فى طوق طارق تحقيق هدفه دون خسائر فما الذى يدعوه للقيام بمثل هذا العمل الذى قد يؤدى إلى خسائر فادحة فى الأرواح والأموال ؟

ويرى الدكتور محمد عيسى أن بعض قادة طارق ، وهم الذين قاموا بإيهام جواسيس لذريق بأكل المسلمين للحوم الأدميين ، هم الذين يمكن أن يقوموا بمثل هذا الإيهام ، فيطلقوا إحراق المراكب ، وهى مجرد إشاعة سرت بين المسلمين فحسب ، وتحديثوا بها لإيقاع الرعب فى قلوب عدوهم (١) . وهذا ما حدث بالفعل ، فقد عاد جواسيس لذريق ليقولوا له : أتتكم أمة تأكل لحوم الموتى ، قد أحرقوا مراكبهم ووطنوا أنفسهم على الموت أو الفتح .

فكان الدكتور عيسى يرى أنها حيلة اشترك فيها قادة جيش

(١) الفتح الإسلامى للأندلس : ص ١١٧ .

طارق، كى يحققوا هدفين فى آن واحد : أولهما خاص بالقوط ،
وثانيهما خاص بجنود الجيش الإسلامى .

وأيا كان الأمر ، فالقصة - فى رأينا ومن خلال هذه القرائن
والاحتمالات - أدخل فى باب الحيل والمكائد الحربية منها فى باب
الحقيقة التاريخية .

وثمة جانب آخر من جوانب الفتح ، يتصل اتصالا وثيقا بقصة
إحراق طارق للسفن ، غير الجوانب التى تحدثنا عنها ، وهذا الجانب
يتصل بتلك القصة التى اختلف المؤرخون حولها وهى قضية ملكية
السفن التى عبر عليها الجيش الفاتح .

فالدكتور حسين مؤنس - كمثال - ينفى قصة إحراق السفن - كما
ذكرنا - على أساس أن هذه السفن كانت ملكا لجوليان ، وأنه
- بالتالى - لا يجوز للمسلمين أن يحرقوا سفن غيرهم^(١) . ويكافئ
الأسلوب التقريرى للدكتور مؤنس يوحى بأن عبور المسلمين على
سفن جوليان - وليس على سفن إسلامية - قضية مسلمة وبديهيّة .

وقد يزكى رأى أستاذنا الدكتور مؤنس ما يذكره الرقيق القيروانى
- من مؤرخى القرن الخامس - أن جوليان (جعل يحمل البربر فى
مراكب التجار التى تختلف إلى الأندلس ولا يشعر بهم أهل
الأندلس ، ولا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت تختلف به من
منافعهم ومعايشهم ومتاجرهم فجعل ينقلهم فوجا فوجا إلى ساحل

(١) فجر الأندلس . ص ٦٩ .

الأندلس وقد تقدم « أليان » إلى أصحاب المراكب أن لا يعلموا بهم (١).

فكان الأمر - كما يوضحه نص الرقيق القيروانى - أمر خطة عسكرية أو (حيلة) من حيل طارق ، وليست عبورا أو حاجة من المسلمين لسفن جوليان أو لتجار البحار وقراصنتها ، وهو الأمر الذى جعل الدكتور أحمد مختار العبادى ينبرى للدفاع عنه ، لتأكيد أن المسلمين كانت لهم سفنهم وهو الشئ البديهي الذى لا يقبل النقاش ؛ لأن المسلمين كانوا قد أصبحوا من المتنافسين على السيطرة على البحار ، وقد مر عليهم نحو ستين سنة على انتصارهم الرائع فى موقعة ذات الصواري (٣٥ هـ) . ولا يمكن - عقلا - أن يكونوا حتى تاريخ فتح الأندلس (٩٢ هـ) لا يملكون ما يكفى لعبور جيش مثل جيش طارق ، كما أننا لمجدهم قد تمكنوا من العبور بعد سنة واحدة بجيش جديد قوامه ثمانية عشر ألف جندي بقيادة موسى بن نصير .

ونحن لا نرى القضية مشكلة على النحو الذى عاجلها به بعض المؤرخين ، كما أننا نرى أنه لا تناقض بين الروايتين ، فقد يمكن أن تكون الحيلة الحربية قد أوجبت عبور الجيش على النحو الذى أورده الرقيق القيروانى ، مع رصد ومراقبة من السفن الإسلامية المراقبة على الشاطئ المغربى والحارسة تشق طريقها - بوضوح - نحو الشاطئ . قامت هذه السفن الراصدة بحمل المؤن وبحمل عدد آخر من الجنود ، وبمجرد نزول الجيش الإسلامى - أو معظمه - على

(١) تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٧٤ . تحقيق المجى الكمى .

الشواطئ الأسبانية بدأت السفن الإسلامية المتربصة والحارسة تشق طريقها - بوضوح - نحو الشاطئ الأندلسي - بعد أن نجحت الحيلة ، وعبر جيش طارق بأقل معارك ممكنة ، إذ لم تحدث إلا موقعة جبل طارق التي خاضها المسلمون في مواجهة الحامية التي تحمل الثغور والشواطئ الأسبانية قبالة المغرب .

بل إن وجود حامية أسبانية على الشواطئ الأسبانية - وهو أمر نراه ضروريا وثابتا - يجعل من خداع طارق وتجنبه الإفصاح عن غايته في الفتح أمرا تقتضيه الظروف العسكرية ، فلو كانت الشواطئ بلا حماية لما أبه طارق بالأمر .

لقد كان جبل طارق يمثل على امتداد التاريخ موقعا استراتيجيا وهمزة وصل بين عدوتي المغرب والأندلس ، وكان التحكم في مضيق المجر ضروريا ضد أى عدوان على أسبانيا من الناحية الجنوبية .

ولقد أدرك الفينيقيون منذ القدم أهمية هذا الموقع حينما احتلوا شواطئ عدوتي المغرب والأندلس فأقاموا على هذا الجبل أبراجا للمراقبين^(١) . ولا شك أن القوط في أواخر أيامهم كانوا على علم تام بمدى قوة المسلمين في الجانب المغربى المقابل لهم ، بل وربما كانوا على علم بنواياهم وخططهم المقبلة ، لأن مضيق المجر الذى يفصل بينهما ذراع ضيق من الماء يبلغ عرضه فى أضيق جهاته خمسة عشر كيلو مترا ، وهى مسافة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكرى بين

(١) تاريخ المغرب والأندلس : ص ٦١ نشر اسكندرية ط ١ .

الشاطئين المغربى والأسبانى (١) .

ويضاف إلى هذا أن الغارات التى شنّها كل من يوليان وطريف على سواحل أسبانيا الجنوبية ، كانت بمثابة إنذار صريح للقوط كى يأخذوا حذرهم من أى هجوم يقع عليهم من هذه الناحية ، فلا يعقل أن يغفل القوط بعد ذلك هذه القاعدة العسكرية مهما بلغ ضعفهم بدون حراسة أو مراقبة (٢) .

وكل هذا يجعل من الطبيعى أن يأخذ طارق للأمر أهبة ، وأن يلجأ إلى أسلوبه فى الحيل الحربية ، وبالتالي ، ومع امتلاك المسلمين لأسطول كبير (٣) ، يموء على أعدائه بالعبور على سفن غيره دون أن يعنى ذلك مغامرة بأرواح المسلمين على سفن أجنبية ، فقد كان الأسطول - كما ذكرت - يراقب الحركة كلها - كما أتوقع - عن كثب ، وعلى أهبة الاستعداد لأى طارئ جديد .

وهكذا - من خلال هذا التحليل لقضية (السفن) التى عبر عليها الجيش الإسلامى - يتجلى لنا أن السفن التى عبر عليها المسلمون كانت لجوليان أو للتجار - كما ذكر أستاذنا الدكتور مؤنس وغيره وهو ما ئمىل إليه من خلال تحليلنا السابق - لكن ذلك كان لحيلة عسكرية وليس لعدم ملكية المسلمين لسفن كافية ، وبالتالي فلا نجد مجالا لاعتراض الدكتور العبادى الذى ذهب يثبت فيه أن المسلمين

(١) المكان السابق .

(٢) المكان السابق .

(٣) لا يعقل أن يعبر جيش قوامه سبعة آلاف - فى الطلعة الأولى - على أربع سفن هى التى ورد ملكية جوليان لها. انظر : مؤلف مجهول . وصف الأندلس وتاريخه ، مجلد ١٨ عدد ١٩٧٤ ص ١٢٨ ، وانظر العبادى ٥٩ .

كانوا يملكون السفن الكافية .

فالعبرون على سفن جوليان أو التجار لم يكن لعدم الملكية بل لخيلة عسكرية ، وإحراق طارق للسفن التي تم العبور عليها غير وارد ، لأنها ملك لغيره ، كما أن إحراقه الأسطول (المراقب) ليس له ما يبرره ، فهو أسطول يحمى الشواطئ ويحمى الجيش الإسلامى من خلفه فلربما تأتى قوى رومانية أو قوطية من الخلف ، ولم تكن مهمة الأسطول فقط - كما ينظر بعضهم إلى القضية - مجرد انتظار المسلمين حتى ينسحبوا - إذا انهزموا - ليركبوه عائدين .

بل هناك ملحظ آخر ، فإن وجود سفن للقراصنة ولجوليان قادرة على حمل الجيش الإسلامى أو بعضه - يوجب وجود أسطول إسلامى على الشواطئ ، فلربما حاولت هذه السفن - وهى نصرانية مهما أظهرت من ولاء - أن تغدر بالمسلمين وتضربهم من الخلف ، فيقع الجيش بين فكى الكماشة ، وهو ما لا يبرره عقل ، ولا توجهه ظروف ، ولا نعتقد أن طارقاً كان يورط فيه جيش المسلمين دون سبب معقول !!

ونحن نرى - من كل ذلك - أن إحراق السفن أمر لم يكن جائزاً من الناحية الاستراتيجية ، وليس له ما يبرره ، بل هناك ما يمنعه ، سواء كانت السفن لجوليان أو للتجار للقراصنة أو للمسلمين .

وثمة تساؤلات أخرى - غير جوانب النقد السابقة - تتصل كلها بالنقد التاريخى لهذه القصة - من ناحية مضمونها - بعد أن وصلنا إلى ترجيح رفضها من ناحية سندها التاريخى والمصادر التى اتكأت عليها .

فبالإضافة إلى ما ذكرناه من دلالات خطوات الفتح وأسلوب طارق وموسى فى الخيطة والحذر والحرص على أرواح المسلمين ، واتخاذ طارق كل وسائل تأمين الانسحاب ، ومهارته فى استعمال الحيل التى نرجح أن (إشاعة إحراق السفن) واحدة منها ، وصعوبة - إن لم يكن استحالة - حرق السفن على أساس أنها - فى بعضها على الأقل - ملك لغير المسلمين ، وأنه لا لزوم لحرقها سواء كانت للمسلمين أو لغيرهم ، فالحيل لا تعوز فى الاستعاضة عن هذا الإحراق .

بالإضافة إلى كل هذا ، فثمة تساؤلات أخرى نراها ضرورية فى باب نقد مضمون هذه القصة .

فهذه القصة ليس فيها ما يدلنا على الوقت الذى وقع فيه الحريق . . . هل وقع بعد عبور طارق مع طالعته الأولى ، وهذا يبدو مستبعدا من أول وهلة - بناء على ما صرح من أن طارقا احتاج إلى مدد ، وأمدّه موسى - فعلا - بخمسة آلاف ، وليس صحيحا ما تذكره بعض الروايات - بصفة إجمالية - بأن طارقا عبر بجيش مكون من اثنى عشر ألف جندي وسبعمائة (عشرة آلاف من البربر وألفين من العرب وسبعمائة من السودان) (١) .

ولعل هؤلاء المؤرخين أنفسهم يقصدون أن هذا العدد عبر على

(١) وصف الأندلس وتاريخه : لمجهول : ص ١٢٨ وانظر الطبرى ٨ / ٨٢ (تاريخ سنة ٩٢) طبع دار الفكر بيروت ويرى ابن خلدون أن العرب كانوا ثلاثمائة فقط . العبر ١٧٧/٤ .

مرتين ، وليس فى مرة واحدة ، وإنما الأمر مجرد اختصار منهم ، وبالتالي فالاحتمال الأقوى : أن يكون طارق قد فعل ذلك - لو فعله - بعد عبور الجيش كله . ويلزم من هذا أن يكون جيش موسى بن نصير بعدده الذى بلغ ثمانية عشر ألف جندي ، والذى عبر بعد سنة واحدة ليساعد طارقاً على الفتح ويلتقى بطارق وجيشه على نهر التاجية . ويلزم من هذا أن يكون جيش موسى هذا قد استحدث أسطولاً خلال هذه السنة ، أو أنه يكون أصلاً فى غير حاجة إلى أسطول طارق ، وكلاهما مما نستبعده ، فالمسلمون الذين قالت بعض الروايات إنهم استأجروا - أو اقترضوا - بعض السفن من جوليان أو التجار لم يكونوا ليضحوا بأسطول يملكونه !!

ولقد ثبت أن المسلمين كانوا جادين فى البحث عن سفن ، وأن موسى كان يبحث طارقاً على تملك ما يستطيع تملكه من السفن وليس إهدار ما معه من السفن !!

وكما يقول ابن القوطية فقد (ذكروا أن موسى بن نصير وجه طارقاً مولاه إلى طنجة وما هنالك ، فافتتح مدائن البربر وقلاعها ، ثم كتب إلى موسى : إننى قد أصبت ست سفائن ، فكتب إليه موسى : أن أتمها سبعة ثم سيرها إلى شاطئ البحر واستعد لشحنها)^(١) . ففيم يكون إذن - مع هذا البحث عن السفن - إهدارها فى غير ما مصلحة ملحة أو ضرورة !!؟

(١) تاريخ افتتاح الأندلس . ص ١٢٠ .

ومن الغريب أننا ونحن ستعرض تطور الأحداث في فتح
الأندلس وما تلاه واتصل به من أحداث ، لا نجد أى صدى - فضلاً
عن أية إشارة صريحة - لحادث حريق السفن هذا ، وبالرغم من أن
هناك بعض الأحداث التي كانت توجب وروده بطريقة أو أخرى .

فحسب ما يرويه لنا بعض المؤرخين من أن هناك خلافاً وقع بين
طارق وموسى بن نصير ، وأن موسى قد حقد على طارق ، وساءه
توغله في البلاد دون إذن منه . . . وكتب إليه - كما يقول ابن
خلدون - يتوعده ويأمره ألا يتجاوز مكانه^(١) . ألم يكن حادث
إحراق السفن - لو وقع - سلاحاً في يد موسى يستغله للانتقام من
جهود طارق وتسجيل مخالفة عليه على هذا المستوى من الأهمية ؟

ولقد كان إحراق السفن - لو وقع - أدعى لتأكيد رأى موسى في
أن طارقاً قد غامر بأرواح المسلمين .

وبما أننا لا نؤكد هذا الرأى ، ونرى أن الخطأ كانت باتفاق
مسبق ، وأن طارقاً التزم الحكمة واستدعى موسى والتقى معه وسارا
معا بعد نهر التاجرة ، وأن موسى فتح مدناً لم يفتحها طارق ، فكلاماً
بعضهما ، وأن طارقاً إنما كان ضابطاً ومولى لموسى بن نصير ، وكل
أمجاده تنسب - أيضاً - إلى موسى^(٢) . بما أننا لا نؤيد هذا الرأى
فنحن لا نعول على قضية خلاف طارق مع موسى لأننا لم نجد لها
سنداً تاريخياً ولا منطقياً .

(١) العبر : ١١٧/٤ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) انظر العبادى : مرجع سابق : ص ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ .

لكننا إذا كنا قد تجاوزنا هذه المسألة ، فنحن لا نتجاوز المسألة الثانية التى تتصل بالخلاف الثابت والمعقد بين الخليفة سليمان بن عبد الملك والقائد موسى بن نصير عندما رفض الأخير التباطؤ بهداياه حتى تؤول إلى موسى حين يكون أخوه الوليد قد لقى ربه ، والقصة مشهورة تشبه أن تكون متواترة (١) .

فلماذا لم يواجه سليمان خصمه موسى بقصة إحراق السفن ؟ تلك القصة التى لم يقم موسى بتوجيه أى لوم أو عقاب لضابطه طارق عليها ، فكأنه رضى عنها أو كأنها كانت من تخطيطه فى الفتح . على أننا فيما وصل إلينا من وثائق الدولة الأموية وفتوحاتها وخلفائها ورسائلهم ومكاتباتهم وسائر ما يتصل بهم ، لم نجد أى صدى لهذه القصة فى هذه الوثائق ، فكيف يمكن أن يقع هذا الصمت المريب إزاء قصة قدر لها أن تنال هذه الشهرة ؟

الحقيقة أنه ليس ثمة إلا تفسير واحد - فى رأينا الذى انتهينا إليه والذى نؤمن به - وهو أن هذه القصة لم يكن لها وجود أصلا ، حتى يكون لها صدى . وهل يمكن أن تكون عيون التاريخ عمياء - خلال هذه الأحقاب المتطاولة - فلا ترى أى بصيص ، ولا تلمس أية بصمة ، ولا تسجل أى أثر يضع أيدينا - بيقين - على دليل واحد من أدلة الإثبات ، أو نقطة ضوء واحدة موثقة !!؟

(١) انظر . أخبار مجموعة . ص ٣٥ ، ٣٦ ، والبيان المغرب ٢٠ / ٣ ، ٢١ وانظر العبادى : مرجع سابق ٧٩ .

كلا ، إن عيون التاريخ أقوى من ذلك بكثير ، وكل ما هنالك
أن التاريخ الصحيح لا يرصد الأساطير ، ولا يأبه بالشائعات والخيال
التي لا تقوى على الوقوف - كوقائع - على قدميها .

وإن التاريخ لقادر على رفضها مهما كان رصيدها من الشيوخ في
عالم الحكايات الأدبية أو الأساطير الشعبية . وهذا هو الجدير بتلك
الأسطورة الغربية ، الغربية على تاريخ المسلمين ، وعلى شريعتهم
وروح حضارتهم ، وسيرة صحابتهم وتابعيهم ، والمصادر الصحيحة
لتاريخهم والمناقضة لمنطق الوقائع والأشياء .

وهذه هي كلمتنا الأخيرة ، ورأينا الذي انتهينا إليه في هذه
القضية ، قضية إحراق طارق بن زياد للسفن .

مراجع البحث

- ١ - أخبار الزمان : للمسعودى - نشر مكتبة الأندلس - بيروت .
- ٢ - أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها : لمجهول - تحقيق إبراهيم الإيبارى - دار الكتاب اللبنانى - بيروت - الطبعة الاولى - ١٤٠١ هـ .
- ٣ - الإسلام فى أسبانيا : للطفى عبد البديع - ط ٢ - مصر .
- ٤ - الإسلام والحضارة العربية : لمحمد كرد على - طبعة مصر .
- ٥ - الإمامة والسياسة : لابن قتيبة الدينورى .
- ٦ - البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب : لابن عذارى المراكشى .
- ٧ - تاريخ الإسلام السياسى : لحسن إبراهيم - ط ٩ - مصر .
- ٨ - تاريخ افتتاح الأندلس : لابن القوطية - تحقيق إبراهيم الإيبارى - نشر دار الكتب الإسلامية - بيروت - القاهرة .
- ٩ - تاريخ إفريقيا والمغرب : للرفيق القيروانى - تحقيق المنجى الكعبى - نشر رفيق السقطى - تونس - ١٩٦٨ م .
- ١٠ - تاريخ الأندلس : لابن الكردبوس - مقدمة العبادى - طبع معهد الدراسات الإسلامية بمديرىد ١٩٧١ م .
- ١١ - التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة : للدكتور عبد الرحمن الحجى : طبع دار القلم بدمشق والكويت - الطبعة الاولى ١٣٩٦ هـ .

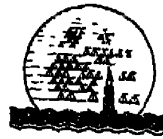
- ١٢ - تاريخ الرسل والملوك : للطبرى - طبعة مصورة من مطبعة الحسين بمصر - نشر دار الفكر - بيروت .
- ١٣ - تاريخ علماء الأندلس : لابن الفرضى .
- ١٤ - تاريخ غزوات العرب : للأمير شكيب أرسلان - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ١٥ - تاريخ المغرب والأندلس : للدكتور أحمد مختار العبادى - طبع مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية - ١٩٦٦ م .
- ١٦ - جلوة المقتبس : للحميدى - نشر دار الكتب الإسلامية والكتاب المصرى واللبنانى - ط ٢ - ١٩٢٣ م .
- ١٧ - الحقيقة التاريخية فى فتح الأندلس : للدكتور محمد عبد الحميد عيسى - ط ١ - القاهرة - سنة ١٩٨٥ م .
- ١٨ - حول دول الإسلام فى الأندلس : لمحمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - ط ٤ - القاهرة - ١٩٦٩ م .
- ١٩ - الدولة العربية فى أسبانيا : للدكتور إبراهيم بيضون - طبعة بيروت .
- ٢٠ - الروض المعطار : للحميرى .
- ٢١ - رواية فتح الأندلس : لجورجى زيدان - منشورات مكتبة الحياة - بيروت .
- ٢٢ - صلة السمط وسمة المرط : لمحمد بن على الشباط المصرى التوزى - تحقيق أحمد مختار العبادى - مدريد - ١٩٧١ م .

- ٢٣ - العبر : لعبد الرحمن بن خلدون - الطبعة الرابعة المصورة - دار الكتب العلمية - ١٩٧٩ م .
- ٢٤ - الفتح الإسلامى للأندلس : الدكتور محمد عبد الحميد عيسى - ط ١ - القاهرة - سنة ١٩٨٥ م .
- ٢٥ - فتح المسلمين للأندلس : لمجهول - تحقيق حسين مؤنس - مجلة معهد الدراسات الإسلامية - سنة ١٩٧٤ م .
- ٢٦ - الفتح والاستقرار العربى الإسلامى فى شمال إفريقيا والأندلس : للدكتور عبد الواحد زنون طه - طبع ١٩٨٢ م - العراق .
- ٢٧ - فتوح مصر والمغرب والأندلس : لابن عبد الحكم المؤرخ المصرى - نشره المنشورق تشارلز تورى ، وأخيراً حققه فى مصر الأستاذ عبد المنعم عامر .
- ٢٨ - فجر الأندلس : لحسين مؤنس - الطبعة الثانية - سنة ١٤٠٥ هـ - الدار السعودية للنشر .
- ٢٩ - قادة فتح المغرب : للأستاذ محمود شيت خطاب - طبعة دار الفكر .
- ٣٠ - قرطبة فى العصر الإسلامى : الدكتور أحمد شكرى - الطبعة العاشرة .
- ٣١ - قضاة قرطبة : للخشنى .
- ٣٢ - الكامل : لابن الأثير - طبع دار صادر - بيروت .
- ٣٣ - كتاب تذكارى : لقسم اللغة الغربية وآدابها بجامعة الكويت ١٩٧٦ / ١٩٧٧ م .

- ٣٤ - مبتدأ خلق الدنيا : المعروف بتاريخ عبد الملك بن حبيب -
ت ٢٣٨ هـ .
- ٣٥ - المتين : لأبى مروان بن حيان القرطبي .
- ٣٦ - محطات أندلسية : لمحمد حسن قجة - ط دار السعودية .
- ٣٧ - مع المسلمين فى الأندلس : لعلى حبيبة .
- ٣٨ - المقتبس : لأبى مروان بن حيان القرطبي .
- ٣٩ - موسوعة التاريخ الإسلامى : للدكتور أحمد شلبى - طبع
القاهرة .
- ٤٠ - نفع الطيب وغصن الأندلس الرطيب : لأحمد المقرئ
التلمسانى - طبع بيروت .
- ٤١ - وفيات الأعيان : لابن خلكان - نشر محيى الدين عبد الحميد .

رقم الإيداع : ٧٧١٥ / ١٩٩٥ م

I.S.B.N:977-255-122-5



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Orbitolben Alexandria

مطابع الوفاء - المحمودية

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ب ٣٥٩٢٣٠ / ٣٥٩٢٢٠ / ٣٤٢٧٢١

ص ب ٢٣٠ طاكس ٣٥٩٧٧٨

قضية هذا الكتاب

✽ لم تحظ قضية من قصايا التاريخ الإسلامى الأندلسى باهتمام المؤرخين مثلما حظيت قضية إحراق « طارق بن زياد » للسفن ، التى عبر عليها حنوده إبان فتحه أسابيا .

✽ وفى هذا الكتاب يستعرض المؤلف موقف المصادر التاريخية من تلك القضية ، ويذكر آراء المؤرخين المحدثين ، ويوارد بين المواقف ويمحص الأقوال والآراء مستخدما منهج مهج المحدثين فى نقد السند والمتن ، مع إضافات متميزة قدمها هذا الباحث المتخصص ، الحبير بسير التاريخ وعلل الرمان وطائع الرجال .

ويتهى المؤلف قائلا : « على أناس فيما وصل إلينا من وثائق الدولة الأموية وفتوحاتها وحلفاتها ورسائلهم ومكاتباتهم وسائر ما يتصل بهم — لم نجد صدق لهذه القضية فى هذه الوثائق ، فكيف يمكن أن تنال هذه الشهرة . !!

الحقيقة أنه ليست تمة إلا تفسير واحد ، وهو أن هذه القصة لم يكن لها وجود أصلا . . .

✽ و دار الصحوة يسعدها أن تتقدم بهذا الكتاب إلى قرائها ، والله الموفق
الناشر

دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة

الإدارة ١٦ ش عدلى ص ت ١٣٤٧ رمز بريدى ١١٥١١
ت ٣٩٣١٤٣٤ فاكس ٣٩١٢٢٠٩
الفرع حدائق حلوان بحوار عمارات المهلبين ت ٣٧٤٠٠٧١

